نيل المأمول

بشرح

ثلاثة الأصول

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

تأليف

أبي عبد الرحمن نعمان بن عبد الكريم الوتر

مكتبة الإدريسي الإسلامية السلفية
للنشر والتوزيع

مكتبة دار الحرمين الإسلامية
للنشر والتوزيع

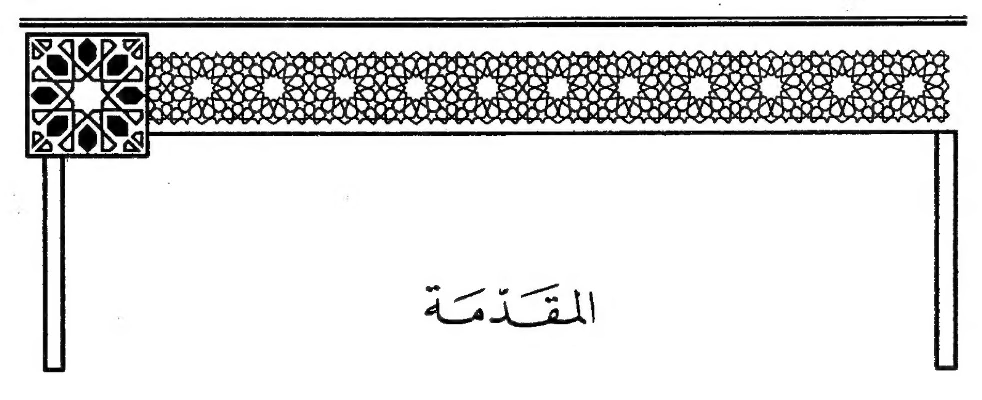
الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

القرآن الكريم والسنة الصحيحة
على فهم السلف الصالح

مكتبة الإدريسي الإسلامية السلفية للنشر والتوزيع
مكتبة دار الحرمين الإسلامية للنشر والتوزيع
الجمهورية اليمنية صنعاء تلفاكس: ٦٢٠٢٢٧ ص ب ١٧١٧٩ بريد شميلة

نيل المأمول
بشرح
ثلاثة الأصول

بسم الله الرحمن الرحيم



المقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن الحديثَ عن التوحيد؛ حديثٌ عما خلق الله لأجله عبادَه، وأرسل لأجله رسله، وأنزل كتبه، هو حديث عن أول الأمر وآخره، وهو حديث عن زبدة دعوة الرسل، حديث عن حق الله على العباد، فالتوحيد أعظم قضية على الإطلاق، وأول القضايا بالاتفاق، وكل رسول بعثه الله افتتح دعوته لقومه بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾. وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾.

وأول أمر في القرآن هو أمر بتوحيد الله، وأول نهي في القرآن هو نهي عن أن نجعل لله نداً في ألوهيته أو ربوبيته، أو أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فالقرآن كله توحيد من أوله إلى آخره، فأعظم ما عُبد الله به التوحيد،

وأعظم ما دُعي إليه التوحيد، فالتوحيد أعظم الطاعات، وأعلى الحسنات، وأشرف القُربات، وأعظم ما عُصي الله به الشرك، فهو أقبح المعاصي، وأكبر المفاسد والسيئات، وهو محبط لجميع الطاعات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

والشرك موجِبٌ للخلود في النار ـ عياذاً بالله ـ. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ وهو مُخرجٌ لصاحبه من ملة الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

وهو ذنبٌ من لقي الله به لا يغفره الله له، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾.

ونحن في هذا الزمن المليء بالفتن التي من أعظمها الشرك بالله نرى منابر كثيرة ـ يسّر الله هدمها ـ تدعو إلى عبادة القبور جهاراً نهاراً، ونرى جامعات ومدارس وأربطة وكتب وأشرطة، وقنوات وإذاعات، وجهود وإمكانات للدعوة إلى عبادة غير الله، ومحاربة التوحيد، وتشويه صورة أهله، مما يجعل المسؤولية عظيمة على أهل التوحيد من العلماء والأمراء والتجار والوجهاء وغيرهم في الدعوة إلى التوحيد، وإبطال شبهات أهل الشرك والضلال، وحماية حياض التوحيد، هذا بعلمه، وهذا بجاهه، وهذا بماله، ومن ذلك السعي في تكثيف الكتب التي تُدرَّس في التوحيد وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة، في الجامعات والمدارس والمعاهد والمساجد، ونشر تلك الكتب على مختلف مستوياتها، وإلقاء الخطب والمحاضرات، وعقد الندوات من قبل المؤهلين للدعوة إلى التوحيد وبيان حقيقته وفضله، والتحذير من الشرك وبيان صوره وأضراره في العاجل والآجل.

وإن من أنفس الكتب وأعظمها في هذا الصدد: كتاب (ثلاثة الأصول) لمؤلفه شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي ـ رحمه الله وأجزل مثوبته ـ وهكذا كتابه الآخر (التوحيد) بيَّن فيهما حقيقة التوحيد

وفضله وثمرته، وحذَّر فيهما من الشرك وبيَّن خطره، وأوضح صوره، فجدير بكل مسلم أن يعتني بهذه الكتب، وما كان على شاكلتها.

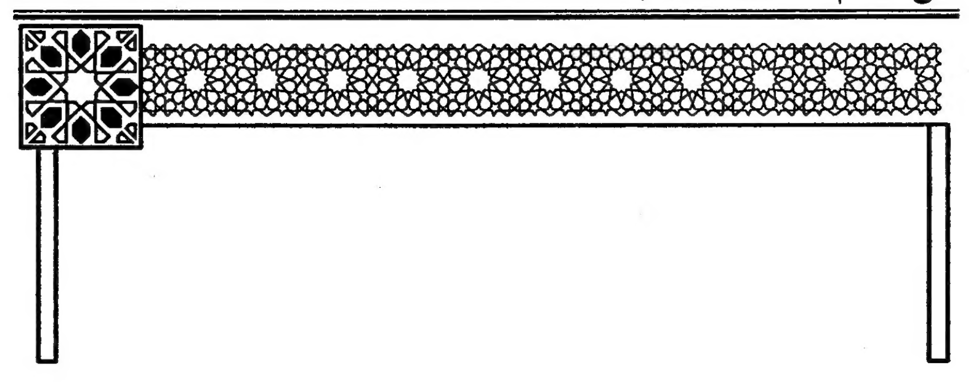
وعلى علماء أهل السنة أن يعتنوا بذلك، لا سيما كتاب (ثلاثة الأصول) فينشروه ويدرسوه في كل مكان يقدرون فيه على ذلك، ويلقنوه الصغار والكبار، ويكون أول ما يُدرس في باب التوحيد والمعتقد في مساجدهم، لما في ذلك من النفع العميم والأجر العظيم، لمن صلحت نيته.

وقد حاولت أن أقوم ببعض هذا الواجب بشرح هذا الكتاب شرحاً متوسطاً سائلاً الله ـ عز وجل ـ أن يجعله لوجهه خالصاً، ولي ولعباده نافعاً، وأن يجعل له القبول، إنه خير مسؤول ومأمول، وقد سميته (نيل المأمول بشرح ثلاثة الأصول) وقد اختصرته في كتيب مطبوع، وسميت المختصر (تيسير الوصول إلى نيل المأمول) أرجو من الله ثوابهما، وأن يجعلهما حجاباً من سخطه وعذابه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.







قال شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي ـ رحمه الله ـ: اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل..،

• **شرح**

اعلم: فعل أمر، بدأ به ليشد انتباه القارئ إلى ما سيذكره من مسائل التوحيد العظام ليُهتَمَّ بها.

والعلم قد اخْتُلِفَ في تعريفه على أقوال كثيرة، فمنهم من قال: هو ضد الجهل، وبضدها تتبين الأشياء.

ومنهم من قال: هو إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما: (إدراك ذات الشيء)، والثاني: (الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه).اهـ[1].

قلت: قوله: «إدراك الشيء»: يخرج به الجهل البسيط، وهو عدم المعرفة بالكلية أو عدم الإدراك بالكلية.

وقوله: «بحقيقته»: يخرج به الجهل المركب، وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه[2].

---

(1) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٣٤٧).

(2) وانظر في تعريف الجهل بقسمين: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ١٠٩).

وعرفه الجرجاني بقوله: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، التعريفات (ص: ١٩٩).

وقال ابن القيم في تعريف العلم: معرفة الهدى بدليله.

قال في نونيته:

العلم معرفة الهدى بدليله ... ما ذاك والتقليد يستويان

قلت: أعمُّ التعاريف الأول، وأخصها الأخير.

وقد أمرنا الله بالعلم وحثنا عليه ومدح أهله، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ..﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، والآيات في ذلك كثيرة. وأمر الله نبيه محمداً ـ ﷺ ـ أن يسأل ربه أن يزيده علماً فقال جل وعلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وأخبر الله تعالى أننا مهما أوتينا من العلم فإنما هو قليل فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأخبر نبينا محمد ـ ﷺ ـ أن طلب العلم فريضة على كل مسلم فقال: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»**[(١)]، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة»**، أخرجه مسلم (برقم: ٢٦٩٩)، وعن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**، متفق عليه.

---

(١) حديث صحيح، انظر صحيح الجامع برقم (٣٩١٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وطلب العلم الشرعي فرض على الكفاية إلا فيما يتعين، مثل طلب كل واحد علم ما أمره الله به وما نهاه عنه فإن هذا فرض على الأعيان».اهـ، مجموع الفتاوى (٢٨/٨٠).

مصادر العلم:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولوا العرفان

وقد ذم ابن القيم الجهل ووصفه بأنه داء قاتل وبيَّنَ دواءه، وبيَّنَ أقسام العلم فقال:

والجهل داء قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن أو من سنةٍ ... وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيانِ
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان

قوله: رحمك الله..،

● **شرحٌ:**

هذا دعاء للمتعلم وهذا من حسن التعليم، والرحمة والشفقة بالمتعلم.

قال الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ: «رحمك الله، أفاض عليك من رحمته التي تحصل بها على مطلوبك وتنجوا من محذورك، فالمعنى: غفر الله لك ما مضى من ذنوبك، ووفقك وعصمك فيما يستقبل منها، هذا إذا أُفْرِدَتِ الرحمةُ، وأما إذا قُرنت بالمغفرة

فالمغفرة لما مضى من الذنوب، والرحمة والتوفيق للخير والسلامة من الذنوب في المستقبل»، شرح الأصول الثلاثة (ص: ١٣)، وانظر حاشية الأصول الثلاثة لابن قاسم (ص: ١٣).

قوله رحمه الله: أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل. . ،

• شَرْحٌ:

الموجب هو الشرع، والواجب هو ما أُمِرْنا به على سبيل الإلزام، وفاعل الواجب امتثالاً مثاب من الله، وتاركه مستحق للعقاب من الله. والمسائل الأربع التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ: يجب تعلمها على كل مُكلّف وهي مسائل عظيمة مشتملة على الدين كله، فتعلمها من أوجب الواجبات.

وقد أجمل المؤلف هذه المسائل ثم بينها بعد ذلك، وفي هذا لفت للانتباه وتشويق لمعرفتها، وهذا من حسن التعليم، والذي يتأمل في حديث رسول ـ ﷺ ـ يجد من ذلك شيئاً كثيراً، والله الموفق.

قال المؤلف رحمه الله: الأولى العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة. . ،

• شَرْحٌ:

(العلم) هنا علم خاص وهو **(معرفة الله. . .)** إلخ.

وهذا العلم هو أعلى أنواع العلم وأشرفها على الإطلاق، لأن شرف العلم يعرف بشرف المعلوم، وتكون معرفة الله بمعرفة أسمائه وصفاته التي تعرَّف بها إلينا وتكون معرفة الله أيضاً بالنظر والتأمل في آياته الكونية وآياته الشرعية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:

١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾..﴾ [الغاشية: ١٧-٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، والمقصود بالمعرفة: المعرفة المثمرة لمحبة الله وتعظيمه وخشيته والتوكل عليه والقيام بعبادته ظاهراً وباطناً والرضى بشرعه وقدره ونحو ذلك، معرفةً تُثْمِر إفرادَه بالعبادة دون ما سواه، ومن كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

* * * *

قال المؤلف رحمه الله: ومعرفة نبيه..،

● **شرح:**

وتكون معرفته ـ ﷺ ـ بأنه عبدُ الله ورسوله وأن الله ختم به النبيين وأن الله أرسله إلى الناس كافة عربهم وعجمهم وأنه أكملُ الخلق علماً وعملاً وخشية لله وبمعرفة هديه وسيرته اعتقاداً وعبادةً وأخلاقاً، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾..الآية [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]، فوصفه الله بالعبودية له في أشرف المقامات، فأُفٍّ وتُفٍّ لمن جعله شريكاً لله في أُلوهيته أو ربوبيته وأسمائه وصفاته، وأُفٍّ وتُفٍّ لمن دعاه مع الله أو من دونه أو استغاث به أو عبَّد نفسه له كما يفعل

بعض الناس فيسمي ولده بعبد النبي، أو يعتقد أنه ينفع أو يضر مع الله أو من دون الله أو أنه يعلم الغيب مع الله أو من دون الله، وقد قال الله له: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ...﴾ الآية [الأنعام:٥٠]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ...﴾ الآية [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وأخرج البخاري في صحيحه (برقم: ٧٣٠١)، ومسلم في صحيحه (برقم:٢٣٥٦)، عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ: صنع النبي ـ ﷺ ـ شيئاً ترخص فيه وتَنَزَّهَ عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبي ـ ﷺ ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني اعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»**.

والمقصود من هذه المعرفة محبته ـ ﷺ ـ والاقتداء به عقيدة وعبادة وخُلُقاً وطاعته والاهتداء بهديه، وألا نقدم قول أحدٍ كائناً من كان على قوله، ولا هَدْيَ أحدٍ على هديه، وأن نستغني بسنته عن البدع والمحدثات والله الهادي إلى سواء السبيل.

❑❑❑❑

قال المؤلف رحمه الله: ومعرفة دين الإسلام بالأدلة...،

• **شرح**

تكون معرفة دين الإسلام بأمور منها:

١ ـ أنه الدين الذي لا يقبل الله بعد بعثة محمد ـ ﷺ ـ من أحدٍ سواه قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢ ـ أنه دين تام عقيدةً ومعاملةً وعبادة، وأن من ابتدع في دين الله شيئاً فبدعته مردودة عليه ولا يزداد ببدعته من الله إلا بُعداً، وإن كان يحسب أنه يحسن صنعاً، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]، وفي صحيح البخاري (برقم: ٢٦٩٧)، ومسلم (برقم: ١٧١٨)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»**، وفي روايةٍ لمسلم: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»**.

٣ ـ أنه دينُ يُسْرٍ ما جعل الله علينا فيه من حرج، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ..﴾ الآية [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي صحيح البخاري (برقم: ٣٩) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«إن الدين يسر ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»**.

٤ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تكفل بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، ومما حفظ الله به هذا الدين الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون لهم بإحسان وأهلُ الحديث والأثر ومن نسج على منوالهم، فللّه دَرُّهم وعلى الله أجرهم وجعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم والمقصود من هذه المعرفة أن نأخذ الدين كله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وأن نتمسك به وأن نحكم به ونتحاكم إليه وأن

نتعلمه وأن ندعوا إليه وأن ننشر بين الناس محاسنه وأن نعتز به وننبذ ما خالفه وأن نعلم أنه ما من خير إلا هو في ديننا وما من شر إلا وقد حذرنا منه ديننا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

قال المؤلف رحمه الله: بالأدلة..،

• شرح

الدليل هو المرشد، وما به الإرشاد التعريفات للجرجاني (ص: ١٤٠).

والأدلة قسمان:

١) **نقلية:** والمقصود بها الكتاب والسنة.

٢) **عقلية:** وهي التي تثبت بالنظر والتأمل والتفكر، وفي هذا دلالة على أن مسائل الاعتقاد مبنية على الأدلة، وتفهم هذه الأدلة بفهم سلف الأمة، فهُمُ الميزان. والله المستعان.

قال المؤلف رحمه الله: الثانية العمل به..،

• شرح

أي المسألة الثانية العمل بالعلم، والعمل هو ثمرة العلم ومقصوده، ولا عمل إلا بعلم، وقد ذم الله ـ عز وجل ـ الذين علموا ثم لم يعملوا، وهم اليهود ومن شابههم، وذم الذين عملوا بلا علم، وهم النصارى ومن شابههم، ونحن ندعوا الله في كل ركعة من صلاتنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

﴿ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، فلابد من العمل بمقتضى المعرفة السابقة من القيام بعبادة الله وإفراده بذلك واجتناب الشركيات والبدع والمحرمات، والله ـ تعالى ـ كثيراً ما يقرن العمل الصالح بالإيمان، وذم الذين يقولون ما لا يفعلون، وأخبر تعالى أن ذلك ممقوت عنده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

وقد أخرج البخاري في صحيحه (برقم: ٣٢٦٦)، ومسلم (برقم: ٧٤٤٠٨) عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»**.

فلابد أن يعمل الإنسان بما علم فيؤدي ما افترض الله عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج وبر بوالديه ويصل أرحامه ويحسن إلى جيرانه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بالضوابط الشرعية فإن الله ما خلق الخلق إلا ليعبدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧].

قال المؤلف رحمه الله: الثالثة الدعوة إليه..،



أي المسألة الثالثة التي يجب تعلمها.

وقوله رحمه الله: (الدعوة إليه) أي إلى العلم وإلى العمل بالعلم، فبالعلم والعمل يسعى الإنسان في تكميل نفسه وبالدعوة يسعى الإنسان في تكميل غيره، والدعوة إلى الله هي وظيفة المرسلين، ولابد للداعي إلى الله

من العلم بما يدعو إليه فلا يدعو على جهل فيضل ويضل، ولابد أن يكون حكيماً في دعوته وقدوة حسنة لغيره في استقامته وأخلاقه، فكما أن الدعوة إلى الله تكون بالقول وبالعمل فكذلك الصد عن سبيل الله يكون بالقول والعمل عياذاً بالله، وأعلى وأولى وأهم ما يدعو الإنسان إليه توحيد الله وإفراده بالعبادات الظاهرة والباطنة من دعاء وصلاة وذبح ونذر وخوف ومحبة ونحو ذلك، ويحذر من ضد ذلك وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى، ويدعو إلى التمسك بالسنة ظاهراً وباطناً والتحلي بمكارم الأخلاق ويحذر من البدع القولية والعملية ويبين خطرها وضررها ويحذر من سفاسف الأخلاق، ويحذر الناس من معصية الله والتمادي في ذلك، ويحذر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ويبين أثرها السيئ على الفرد والمجتمع، وينشر بين الناس محاسن هذا الدين. كل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، وإن احتاج إلى مجادلة فبالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا وبحسب المصلحة الشرعية.

وأعظم ما يجب على الداعي إلى الله المبلغ عنه وعن رسوله أن يكون مخلصاً لله في دعوته قاصداً بذلك وجه الله ثم منفعة الخلق، ولابد أن يكون متبعاً لرسول الله ـ ﷺ ـ متحرياً لهديه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقد تضمنت هذه الآية العظيمة هذين الأصلين العظيمين.

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى لموسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٤]، ولما بعث النبي ـ ﷺ ـ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال لهما: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا**»، رواه البخاري (برقم: **٣٠٣٨**)، ومسلم (برقم: **١٧٣٣**)، وقد تكلم عليه الإمام النووي بكلام نفيس فارجع إليه، وفي البخاري (برقم: **٧٣٧٢**)، ومسلم (برقم: **٢٩**) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ

لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى أهل اليمن: **«إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس»**.

وكم للداعي إلى الله من الأجر والثواب إذا كان مخلصاً في دعوته متحرياً لاتباع السنة فربما هدى الله إنساناً بكلمة سمعها أو خطبة أو موعظة، فيكون ذلك خيراً للداعي إلى الله من حُمر النعم، ففي البخاري (برقم: ٣٧٠١)، ومسلم (برقم: ٦١٧٣) من حديث سهل بن سعد الساعدي أن النبي - ﷺ - قال: **«. . .فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمر النعم»**.

بل يشارك العاملين الذين دلهم على الأعمال الصالحة فيكون له مثل أجورهم وإن لم يعمل كعملهم فربما صلوا النوافل وهو تارك لها وكان مشاركاً لهم في الأجر وربما قاموا الليل وهو نائم فيكون له من الأجر مثل ما لهم وربما صاموا النوافل وهو مفطر فيكون مشاركاً لهم في الأجر والثواب فهنيئاً هنيئاً للعلماء وطلبة العلم والدعاة إلى الله بقوله - ﷺ -: **«من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»** أخرجه مسلم (برقم: ٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -. ألا وإن في هذا الحديث وعيد شديد لمن يدعو الناس إلى الضلال كمن يدعو الناس إلى الشرك مِنْ ذبح لغير الله أو نذر لغير الله أو التمسح بأتربة الموتى وطلب الغوث والمدد منهم، وهكذا دعاة البدع والخرافات والدعاة إلى الحزبية المقيتة التي هي تفريق لكلمة المسلمين وسبب عظيم في ضعفهم فإلى الله المشتكى هو حسبنا ونعم الوكيل.

قال المؤلف رحمه الله: والصبر على الأذى فيه..،

• شَرْحٌ

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين (١٦٢/٢ ـ ١٦٣): «فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله، فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه». اهـ.

فلابدَّ من الصبر على طلب العلم، ولابدَّ من الصبر على العمل بالعلم، ولابدَّ من الصبر على الأذى عند دعوته إلى العلم والعمل، فكم من الناس الذين يؤذون الأقربين والأبعدين لأنهم يرغبون في تعلم ما افترضه الله عليهم ويرغبون في عبادة الله على بصيرة، عجباً لمن يمنع ولده أو قريبه من طلب العلم النافع ويوجهه إلى ما لا ينفعه، أو يشغله بما يضره، ولا يدري أنه إذا انتفع كان له نصيب من الأجر وكان ذلك الطالب شرفاً لأهله بل ولأهل بلده كلهم، ولكن من جهل شيئاً فقد يكون من أعدائه عياذاً بالله، وليس بعجيب أن تجد أهل البدع والأهواء يصدون الناس عن طلب العلم الشرعي، لأن بضاعتهم الفاسدة الكاسدة لا تنفق إلا بين الجاهلين، فهم يريدون أن تبقى المجتمعات جاهلة لاسيما الشباب ليتلاعبوا بعقولهم وعواطفهم وقدراتهم ولكن هيهات هيهات، فالشمس تطلع رغم أنف الأرمدِ.

ولابدَّ أيضاً لطالب العلم أن يصبر على الأذى الذي يلاقيه عند طلب العلم من فقر وغربة عن الأهل والأوطان ومن مشقة التلقي والمذاكرة والمطالعة وجمع الفوائد ونحو ذلك، والموفق من وفقه الله وأعانه.

ولابدَّ لمن أراد أن يعمل بعلمه أن يصبر، فإن من أراد أن يعمل بالسنة في صلاته وصيامه وحجه ولباسه وعند تجهيز الجنازة وأثناء حملها ودفنها، وبعد ذلك، وهكذا في الأعراس وغيرها فلابدَّ أن يلاقي ما يؤذيه

من الأقوال وربما من الأعمال وقد تجمع له أذية القول والعمل من أهل البدع والأهواء من الجهلة الذين لا يعرفون إلا ما أَلْفَوْا عليه آباءهم وأجدادهم، والله المستعان وعليه التكلان.

ولابدَّ لمن دعا إلى الله من صبر فإنه قائم مقام المرسلين، وقد قال ورقة بن نوفل لنبينا ـ ﷺ ـ: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أُوذي»، فإنه إن دعا إلى التوحيد وقف في وجهه دعاة الشرك ومروجوه والمتأكلون به، وإن دعا إلى السنة وقف في وجهه أهل البدع والأهواء وإن حذَّر من المعاصي والمنكرات وقف في وجهه أهل الشهوات من الفسقة والفجرة ومن حشر نفسه في زمرتهم، لأنه يحول بينهم وبين أهوائهم وشهواتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة التي زينها لهم الشيطان، وسوف أسوق بعض الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة التي فيها تسلية للمؤمن الصابر على العلم والعمل والدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٣ ـ ٣٦].

فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً:

إحداهما: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على تعلم العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى

الخلق ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرفَ الحق ويعملَ به، ويعلمه، فمن علم وعمل فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات.اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والدليل قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ ـ ٣]،

● شرح

قوله: (والدليل) :أي على المسائل الأربع.

وقد سبق الكلام على البسملة ولله الحمد، وليست البسملة آية من سورة العصر.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب التبيان (ص: ٥٧): هذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم حتى قال الشافعي رحمه الله ـ: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم. والعصر المُقْسَمُ به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار، وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته، وقيل: المراد صلاة العصر، وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح وتسمية الدهر عصراً أمر معروف في لغتهم.اهـ.

قلت: ومن حِكَمِ إقسام الله بالعصر ـ الدهر ـ:

أن العظات والعبر والآيات تكون فيه.

لأنه زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، فأقسم به لينبه على عاقبتها وجزائها، فنبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد وأن قدرته كما لم تقصر على المبدأ لم تقصر عن المعاد وان حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشرّاً،

تأبى أن يسوي بينهم وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. اهـ، مقتبساً من التبيان (ص: ٥٧) وإغاثة اللهفان (٢٥/١) لابن القيم ـ رحمه الله ـ.

وقد ذكر ابن القيم هذه السورة في كتابه العظيم، مفتاح دار السعادة (٥٦/١) ثم قال: قال الشافعي رضي الله عنه: «لو فكَّر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم»، وبيان ذلك ان المراتب اربعة، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله، إحداها: معرفة الحق، والثانية: عمله به، والثالثة: تعليمه من لا يحسنه، والرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه، فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحدٍ في خسرٍ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة، وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق، وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً فهذه مرتبة ثالثة، وتواصوا بالصبر: صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة، وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميل غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير. اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق الكلام على هذه السورة: فلا بدَّ من الصبر على فعل الحسن المأمور به وترك السيِّئ المحظور ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال، والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر على البطر عند النعم وغير ذلك من أنواع الصبر. اهـ، (١٥٣/٢٨) مجموع الفتاوى، وقال ـ رحمه الله ـ (٦٥/١٦): إن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فكما أنا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيصاء بها، فقد نُهينا عن قبول ضدها، وهو التكذيب بالحق وترك الصبر. اهـ.

قلت: وهناك كلام قيم على هذه السورة تركته خشية الإطالة وإملال المبتدئ، فمن أحب نظره في المدارج لابن القيم (١/٦-٧)، وفي التبيان في أقسام القرآن (٥٧)، وفي عدة الصابرين (ص: ٧٥)، وفي الجواب الكافي (١٣٥ ـ ١٣٦)، والله الموفق.

* * * *

قال المؤلف رحمه الله تعالى: قال الشافعي رحمه الله تعالى: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم،

● شَرْحٌ:

لم أقف على إسناد مقالة الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ، بإسنادها إليه ولم أقف على أحدٍ ذكرها بهذا اللفظ، والذي وقفت عليه ما في مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (١٥٢/٢٨) حيث قال: وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: لو فكَّر الناس كلهم في سورة والعصر لكفتهم. وهو كما قال: فإن الله ـ تعالى ـ أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً، ومع غيره موصياً بالحق موصياً بالصبر. اهـ.

وقد حكى ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن الإمام الشافعي ما حكاه شيخه ابن تيمية ـ رحمهم الله ـ في كتابه التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٧)، وفي كتابه إغاثة اللهفان (٢٥/١)، وفي كتابه الكلام على مسألة السماع (ص: ٤٠٤)، وذكره أيضاً في مفتاح دار السعادة (٥٦/١) ثم قال: وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. اهـ، وقد سبق ذكر ذلك ولله الحمد. ثم وقفت على قول للإمام النووي في رياض الصالحين: باب التعاون على البر والتقوى بعد أن ذكر سورة العصر قال: قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ كلاماً معناه: أن الناس أو أكثرهم في غفلة عن تدبر هذه السورة. اهـ.

قلت: ولم يحل على أي مصدر ـ رحمه الله ـ وكلامه قريب مما نقل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والله المستعان.

وقال المؤلف رحمه الله تعالى: وقال البخاري رحمه الله تعالى: باب العلم قبل القول والعمل والدليل قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، **فبدأ بالعلم قبل القول والعمل،**

• **شرح:**

الذي في صحيح الإمام البخاري: باب العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فبدأ بالعلم.اهـ.

قلت: وقد رجعت إلى أكثر من نسخة وإلى أكثر من شرح فلم أجد إلا هذا، ولعلَّ الإمام المجدد ـ رحمه الله ـ وقف على نسخة أخرى أو كتب من حفظه، والله اعلم.

وقد قال العيني في عمدة القارئ (٥٤/٢) بعد أن ذكر تبويب الإمام البخاري السابق: أي هذا باب بيان أن العلم قبل القول والعمل، أراد أن الشيء يُعلم أولاً ثم يقال ويعمل به، فالعلم مقدم عليهما بالذات، وكذا مقدم عليهما بالشرف، لأنه عمل القلب، وهو أشرف أعضاء البدن، وقال ابن بطال: العمل لا يكون إلا مقصوداً يعني متقدماً، وذلك المعنى هو علم ما وعد الله عليه بالثواب، وقال ابن المنير: أراد أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليها لأنه مصحح النية المصححة للعمل، فنبه البخاري على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: أن العلم أولاً حيث قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ثم قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، والاستغفار إشارة إلى القول والعمل، والخطاب وإن كان للنبي ـ ﷺ ـ فهو متناول لأمته.اهـ.

قلت: وانظر إرشاد الساري للقسطلاني (١/٢٤٦)، وشرح البخاري للكرماني (٢/٢٩)، وشرح البخاري لابن بطال (١/١٥١)، وفتح الباري لابن حجر (١/١٥٩)، وإنما نزلت في النقل لأن العيني ذكر أكثر الكلام الموجود في هذه المصادر في مكان واحد، والله الموفق.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه المسائل والعمل بهن: الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٦]،

• **شرح:**

سبق الكلام على قوله: (**اعلم رحمك الله**) وأن هذا الطلب في قوله: اعلم يفيد فائدتين:

(١) شَدُّ انتباه القارئ والمستمع، (٢) التنبيه على عظيم وأهمية ما سيذكره.

ومن قوله: (**رحمك الله**)، رفق بالطالب المتعلم وإحسان إليه وذلك بالدعاء له.

وتعلم هذه المسائل الثلاث والعمل بهن من فروض الأعيان على جميع المكلفين من الإنس والجن.

قوله رحمه الله: (الأولى: أن الله خلقنا):

• **شرح:**

الأدلة على أن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق:

(١) القواطع النقلية: ومنها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]، وفي صحيح البخاري برقم (٥٩٨٧)، ومسلم برقم (٢٤٦١): من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك...»** الحديث .

وفي صحيح مسلم برقم (٦٧١٠) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دُعي رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جنازة صبيٍّ من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، قال: **«أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»**.

وفي مستدرك الحاكم (٣١/١)، من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«إن الله خالق كل صانع وصنعته»**، قال شيخنا ووالدنا العلامة المحدث مقبل بن هادي الوادعي ـ حفظه الله ـ في كتابه الصحيح

المسند مما ليس في الصحيحين (١/١٣١): هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) الضرورة العقلية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٥/٣٥٨-٣٥٩):

ومن المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لابدَّ له من محدث، وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة، حتى الصبيان، فإن الصبي لو ضربه ضارب وهو غافل لا يبصر لقال: من ضربني؟ فلو قيل له: لم يضربك أحد، لم يقبل عقله أن تكون الضربة حدثت من غير محدث، بل يعلم أنه لابد للحادث من محدث، فإذا قيل: فلان ضربك، بكى حتى يضرب ضاربه، فكان في فطرته الإقرار بالصانع وبالشرع الذي مبناه على العدل، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، وفي الصحيحين من حديث جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء أسرى بدر، قال وجدت النبي ـ ﷺ ـ يقرأ في المغرب بالطور، قال: فلما سمعت هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]؟ أحسست بفؤادي قد انصدع.

وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره تعالى بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها، يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور: ٣٥] أي من غير خالق خلقهم، أم هم خلقوا أنفسهم؟

وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل، فتعين أن لهم خالقاً خلقهم سبحانه وتعالى.اهـ.

انظر مجموع الفتاوى (٢/١١، ٣٧، ٧٤ ـ ٧٨)، (١٦/٤٤٤ ـ ٤٤٥).

٣) الفطرة السليمة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٦/٧٢ ـ ٧٣): (فإنهم ـ الخلق ـ كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق، فإنهم مفطورون على أنه أجلُّ وأكبر وأعلى واعلم وأعظم وأكمل من كل شيء وقد بينا في

غير هذا الموضع أن الإقرار بالخالق وكماله، يكون فطريّاً ضروريّاً في حق من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة وقد يحتاج إلى الأدلَّة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة).اهـ.

وقال: (والتحقيق أن العلم بأن المحدَث ـ المخلوق ـ لابدَّ له من مُحدِث ـ الخالق ـ هو علم فطري ضروري).اهـ، مجموع الفتاوى (٤٧/١)، وانظر (٣٥٨/٥)، (٤٤٤/١٦) من مجموع الفتاوى.

٤) إجماع الأمم، وقد نقله شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٩٦/٣ ـ ٩٧).

وإنما خلقنا الله لنفرده سبحانه بالعبادة دون ما سواه.

* * * *

قوله رحمه الله: (ورزقنا).

ومن الأدلّة على ذلك: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

ومن السنة ما رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٤٥٤) ومسلم برقم (٦٦٦٦): من حديث عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أُمّه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يُرسلُ الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد»**.. الحديث، وهذا لفظ مسلم.

ولما رواه مسلم في صحيحه برقم (٦٧١٢): أن أم حبيبة زوج النبي ـ ﷺ ـ قالت: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ـ ﷺ ـ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ـ ﷺ ـ: **«قد سالت الله لآجالٍ**

مضروبة وأيام معدودةٍ وأرزاق مقسومةٍ، لن يعجل الله شيئاً قبل حلّه، أو يؤخر شيئاً عن حلّه، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذابٍ في القبر كان خيراً وأفضل».

■ ■ ■ ■

وقوله رحمه الله: (ولم يتركنا هملاً).

قال ابن منظور في لسان العرب (٧١٠/١١): والهمل: السُّدى المتروك ليلاً أو نهاراً. وما ترك الله الناس هملاً أي سدى بلا ثواب ولا عقاب، وقيل لم يتركهم سدى بلا أمر ولا نهي ولا بيان لما يحتاجون إليه.اهـ.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

قال ابن كثير في تفسيره (٣٤٧/٣) في الكلام على هذه الآية: أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، وقيل للعبث، أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب ولا عقاب، إنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله ـ عز وجل ـ .اهـ، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

قوله رحمه الله: (بل أرسل إلينا رسولاً).

● **شرح:**

هذا محمد ـ ﷺ ـ أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨]، أرسله الله مبشراً ونذيراً، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال تعالى:

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥]، فيجب علينا معرفة ذلك واعتقاده وأن نعمل بمقتضاه إن أردنا لأنفسنا النجاة.

قوله رحمه الله: (فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار).

• شرح:

لأن طاعة الرسول طاعة الله ومعصيته معصية الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤]، وفي صحيح البخاري برقم (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**».

وفي صحيح البخاري برقم (٢٩٥٧)، ومسلم برقم (١٤١٤) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله**».

قال الإمام القرطبي في المُفهِم (٤/٣٥): وذلك أنه ـ ﷺ ـ لما كان مبلِّغاً أمر الله، وحكمه، أمر الله بطاعته، فمن أطاعه فقد أطاع أمر الله ونفَّذ حكمه. اهـ.

واعلم أن معصية الرسول قد تكون كفراً وقد تكون دون ذلك.

قوله رحمه الله: (والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٦].

● شَرْحٌ:

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه الآية: فأخبر سبحانه أنه أرسل محمداً ـ ﷺ ـ إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون، وأن فرعون عصى رسوله، فأخذه أخذاً وبيلاً، فهكذا من عصى منكم محمداً ـ ﷺ ـ وهذا في القرآن كثير جداً فقد فُتِحَ لك بابهُ.اهـ، إعلام الموقعين (١٣٨/١).

قوله رحمه الله تعالى: الثانية: أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]،

● شَرْحٌ:

قوله: (أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته).

لأن العبادة حق محض لله، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

وفي صحيح البخاري برقم (٧٣٧٣)، ومسلم برقم (٣٠): عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: **«يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟»** قال: الله ورسوله اعلم، قال: **«أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدرون ما حقهم عليه؟»** قال: الله ورسوله اعلم، قال: **«أن لا يعذبهم»**.

وقوله (أحد): نكرة في سياق النفي تفيد العموم.

ولأن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، أرسل الرسل وأنزل الكتب.

■ ■ ■ ■

قوله: (لا ملك مقرب ولا نبي مرسل).

أي ولو كان هذا المعبود مع الله ملكاً مقرباً كجبريل، أو نبيّاً مرسلاً كمحمد ـ ﷺ ـ، فما بالك بمن دونهم، بل يصدق على هؤلاء قول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، ويقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠]، ويقول تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥]، فاذا كان الله سبحانه وتعالى لا يرضى أن تعبد معه خير خلقه من الملائكة والنبيين فكيف يرضى لك أن تعبد حجراً أو قبراً أو بقرةً أو فأراً ونحو ذلك: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وهذه المسألة الثانية هي تحقيق للمسألة الأولى فكما أن الله هو المنفرد بالخلق والرزق فهو المستحق للعبادة دون ما سواه ولذلك أرسل رسله وأنزل كتبه.

■ ■ ■ ■

قوله رحمه الله: (والدليل من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]).

أي الدليل على أن الله لا يرضى أن يشرك معه غيره في العبادة هذه الآية، ووجه الدلالة أن أحداً نكرة في سياق النهي فتفيد العموم للبشر والملائكة والجن وغير ذلك، لا يجوز عبادتهم مع الله سبحانه وتعالى ولا

يجوز دعائهم لا دعاء مسألة ولا دعاء عبادة بل يجب إفراد الله بالتوحيد وإخلاص العبادة له دون ما سواه، وعليه فلو قال قائل: إن الدليل أخص من الدعوى حيث أن الآية فيها النهي عن دعاء غير الله معه والدعوى أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، والشرك في العبادة يشمل أشياء أكثر بكثير من الدعاء، فإما أن يقال: إن الدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة كما سبق فيكون الدليل مطابقاً للدعوى، وإما أن يقال: إنما ذكر الآية التي فيها الدعاء لإن أكثر الشرك وقع في دعاء غير الله معه من استعاذة واستغاثة وطلب المدد ونحو ذلك، والله أعلم.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: الثالثة أن من أطاع الرسول ووحد الله، لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب، والدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]،

• شرح:

المسألة الثالثة مما يجب على المكلف تعلمه والعمل به، أن من أطاع الرسول - ﷺ - بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وإفراد الله بالعبادة الظاهرة والباطنة، لا يجوز له أن يوالي من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب الناس إليه، لأن موالاة من كان كذلك ينافي أصل الإيمان أو كماله، فلا بدَّ من الولاء والبراء، والحب في الله ولله وبالله، والبغض لله وفي الله وبالله، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

ويقول تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩]، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢]، ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى من هو الذي يجب أن نواليه فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٧]، ولا شكَّ أن مسائل الولاء والبراء من المسائل العظيمة الدقيقة التي يحصل خلط عند كثير من الناس في أحكامها وفي تطبيقها وذلك بسبب الجهل أو الهوى وعلاج ذلك كله بالاعتصام بالكتاب والسنة وعلى فهم سلف الأمة والاستنارة بفتاوى أهل العلم الربانيين العاملين والله الهادي إلى سواء السبيل.

* * * *

وقوله رحمه الله: (والدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ **[المجادلة: ٢٢].**

• **شرح:**

قوله: (والدليل): أي الدليل على أن من أطاع الرسول ووحد الله لا

يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، فهذه الآية العظيمة أصل في هذا الباب ومثلها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: ٢٣ ـ ٢٤].

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ﴾ قال العز بن عبد السلام في تفسيره (٣/٢٩٦) ﴿لَّا تَجِدُ﴾ نهي بلفظ الخبر، أو مدحهم باتصافهم بذلك ﴿حَآدَّ﴾ حارب أو خالف أو عادى. اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الآية كما في مجموع الفتاوى (٧/١٧) ثم قال: فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فاذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله، فاذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب. اهـ.

﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ قطع الله بهذه الآية المودة بين المؤمن الحق وبين آبائه وأبنائه واخوانه وعشيرته ما داموا محادِّين لله ورسوله، والله خير وأبقى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾: قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٤/٤٢٢) أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته. اهـ.

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، سِرٌ بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم العميم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته، وقوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن اولئك بأنهم حزب الشيطان، قال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: اعلم أرشدك الله لطاعته، أن الحنيفية ملة ابراهيم أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٦]، **ومعنى يعبدون يوحدون،**

• شرح:

قوله: (اعلم)، قد سبق الكلام عليه.

وقوله: (أرشدك الله لطاعته)، الرشد: خلاف الغي ويستعمل استعمال الهداية، انظر مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٢٠٢)، ومعنى أرشدك الله لطاعته: أي هداك الله لطاعته ووفقك لها.

(الحنيفية): قال ابن الأثير في النهاية (١/٤٥١): الحنفاء جمع حنيف وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه، والحنيف عند العرب من كان على دين ابراهيم عليه السلام، وأصل الحَنَف الميل.اهـ.

وقد فسر المؤلف ـ رحمه الله ـ الحنيفية بأنها ملَّة ابراهيم وهي أن تعبد الله مخلصاً له الدين.. الخ.

(وأما الملّة): فقد قال الراغب في المفردات (ص: ٤٧٦): الملة: كالدين وهو اسم لما شرع الله ـ تعالى ـ لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله.اهـ.

(والإخلاص): هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة. مدارج

السالكين (٢/٩٥)، وقيل: هو إخلاص القصد والعمل لله، وهو تعريف حسن، وقد أمر الله أنبياءه وجميع عباده بإخلاص العبادة له دون ما سواه فقال تعالى لنبينا محمد ـ ﷺ ـ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢ ـ ٣]، وقال تعالى لنبيه ﷺ ـ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الانعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر: ٦٦].

قوله رحمه الله: (وخلقهم لها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]):

وخلقهم لها: أي خلق الناس ليعبدوه مخلصين له الدين، وأما الآية فإن اللام في قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ لام التعليل، أي أن الحكمة من خلق الجن والإنس هي افراد الله بالعبادة دون ما سواه، وقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذه الآية كما في كتابه طريق الهجرتين: «فأخبر أنه إنما خلقهم للعبادة، وكذلك أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه، فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها ولم يخلقوا لمجرد الترك فإنه أمرٌ عدمي لا كمال فيه من حيث هو عدم، بخلاف امتثال المأمور، فإنه أمرٌ وجودي مطلوب الحصول».اهـ.

وقوله: (ومعنى يعبدون يوحدون): قال الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ في شرحه للثلاثة الأصول، يعني التوحيد من معنى العبادة، وإلا فقد سبق لك معنى العبادة وعلى أي شيء تطلق وأنها أعم من مجرد التوحيد.اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وأعظم ما أمر به التوحيد، وهو أفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو دعوة غيره معه، والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]،

● شَرْحٌ

التوحيد لغة: مصدر وحد يوحد توحيداً، أي جعله واحداً، انظر تاج العروس للزبيدي (٥٢٥/٢).

والتوحيد شرعاً: إفراد الله سبحانه بما يختص به من الربوبية والأُلوهية والأسماء والصفات، انظر «القول المفيد» للعلامة ابن عثيمين. ولما كان أكثر الشرك مناقضاً لتوحيد الألوهية الذي هو إفراد الله بالعبادة، فإنك تجد كثيراً من تعريفات العلماء للتوحيد أنهم يعرفونه بتوحيد الألوهية.

وأما الشرك: فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاستقامة» (٣٤٤/١): أصل الشرك أن تعدل بالله ـ تعالى ـ مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده. اهـ، وقال (٧٤/١): والشرك: أن تجعل لغيره شركاً ـ أي نصيباً ـ من عبادتك وتوكلك واستعانتك. اهـ، ولما كان أكثر الشرك من العالم متعلقاً بعبادة غير الله معه فإنك تجد كثيراً من العلماء يعرِّفون الشرك بأنه صرف شيء من عبادة الله لغيره، وقد عرفه الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأنه دعوة غيره معه، فإما أن يقال إن هذا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة فيكون شاملاً لجميع العبادات التي تصرف لغير الله، وإما أن يقال: إنه ذكر دعوة غير الله معه لان كثيراً من الشرك في هذا الباب يكون بدعاء غير الله ويدخل تحت ذلك أنواع كثيرة من هذا الدعاء الشركي والله اعلم.

وإنما كان التوحيد أعظم ما أمر الله به، لأنه حق الله على عباده فكما أنه المنفرد بخلقهم ورزقهم وتدبير شؤونهم وجب أن يكون هو المعبود دون ما سواه ولذلك خلقهم ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولأن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لتحقيق هذا التوحيد، ولأن الرسل من أولهم إلى آخرهم اتفقوا على البدء بالدعوة إليه والنهي عن

ضده، ولأن من حقق التوحيد فقد أنقذ نفسه من الهلاك في الدنيا والآخرة، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى(١٦١/١٨): وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل. اهـ، وقال في (١٦٢/١٨) من مجموع الفتاوى: كما أن التوحيد أعظم الصلاح. اهـ، وقال كما في (٢٥١/١١ ـ ٢٥٢) من مجموع الفتاوى: (أعظم الحسنات التوحيد). اهـ.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، والآيات والأحاديث في هذا كثيرةٌ جداً بل القرآن كله توحيد.

وإنما كان أعظم ما نهى الله عنه الشرك لأسباب منها:

(١) أن الشرك محبط لجميع الاعمال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

(٢) أن الشرك لا يغفره الله لمن لقي الله به من غير توبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

(٣) أن الله حرم الجنة على المشركين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

(٤) أن المشرك مخلد في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

(٥) أن الشرك ظلم عظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

(٦) أن الشرك سبب للحرمان من الأمن والاهتداء، قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

(٧) أن الشرك يوقع في أعظم خسارة على الإطلاق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

(٨) أن من أشرك فقد افترى إثماً عظيماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. تغير ذلك ـ.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٨٨/١): اعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصي الله به.اهـ، وقال كما في (١٦٢/١٨) من مجموع الفتاوى: الشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح.اهـ، وقال كما في (٢٥١/١١ ـ ٢٥٢) من مجموع الفتاوى: وأعظم السيئات الشرك.اهـ، وقال كما في (١٦١/١٨) من مجموع الفتاوى: التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده هو الشرك أعظم الظلم.اهـ.

وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: **«أن تدعو لله نداً وهو خلقك»**.

قوله رحمه الله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]).

• شرح

في هذه الآية الأمر بإفراد الله بالعبادة الظاهرة والباطنة، القولية والعملية، والنهي عن الشرك بالله قليله وكثيره. قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٦٥٦/١): يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا

شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم ان يوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته كما قال النبي - ﷺ - لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه -: **«أتدري ما حق الله على العباد؟»** قال: الله ورسوله اعلم، قال: **«أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً»**، ثم قال: **«أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم»**.اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: فإذا قيل لك ما الأصول التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ،

• شرح

بعد أن ذكر المؤلف المسائل العلمية السابقة التي يجب على كل مسلم أن يتعلمها وأن يعمل بها والتي هي كالتمهيد والتوطئة لهذه الأصول الثلاثة شرع في بيان هذه الأصول التي هي لبُّ هذه الرسالة ومقصودها، فهذه الرسالة من هنا إلى آخرها في بيان هذه الأصول وأدلتها فجزى الله مؤلفها خيراً ونسأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب بأنه الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن يجعلنا وجميع المسلمين من الذين يوفقون للجواب الصواب على هذه الأسئلة إنه على كل شيء قدير.

قوله رحمه الله: (فإذا قيل لك): أي إذا سألك سائل.

قوله رحمه الله: (ما الأصول التي يجب على الإنسان معرفتها):

الأصول: جمع اصل، واصل الشيء أساسه وقاعدته، والأصل ما يتفرع منه غيره، أوما يبنى عليه غيره، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [ابراهيم: ٢٤].

والعلم بهذه الأصول الثلاثة والعمل بمقتضى ذلك العلم من أوجب الواجبات لان العبد سيسأل عنها في قبره كما يدل على ذلك حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد، فجلس رسول الله ـ ﷺ ـ فجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» ثلاث مرات أو مرتين ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، حتى يجلسوا منه مد البصر، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، ثم يجيء ملك الموت، فيقعد عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء، فاذا أخذوها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: هذا فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي يسمى بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فيفتح لهم، فتستقبله من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة**» قال: «**فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء الرابعة وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله ﷺ فيقولان: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت به، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من طيبها وروحها ويفسح**

له في قبره مدَّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي. وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر»، ثم قال: «ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط الله وغضبه» قال: «فتفرّق في جسده»، قال: «فتخرج فينقطع معها العروق والعصب كما تنزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فاذا أخذوها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على ظهر الأرض فيصعدوا بها فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان باقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون فلا يفتح له»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. قال: «فيقول الله ـ عز وجل ـ: اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى وأعيدوه إلى الأرض، فاني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتطرح روحه طرحاً». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، قال: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه الملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ها ها لا أدري، فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: ها ها لا أدري»، قال: «فينادي منادٍ من السماء: أفرشوا له من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له باباً من النار»، قال: «فيأتيه من حرها وسَمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد،

فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»(١).

وأخرج البخاري في صحيحه برقم (١٣٦٩) عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «**إذا اقعد المؤمن في قبره ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾** [إبراهيم: ٢٧]».

قوله ـ رحمه الله ـ: (فقل معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ):

قال سماحة العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ في شرحه للأصول الثلاثة (ص: ٣٨): هذه الأصول الثلاثة تجمع الدين كله: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهي التي يسأل عنها العبد في قبره.اهـ(٢).

---

(١) صحيح اخرجه أبو داود ح(٤٧٥٣) (ص: ٧٢٠)، والنسائي (٦٤٦/١) (٢١٢٨) مختصراً، وابن ماجة (٤٩٤/١) ح(١٥٤٩) مختصراً، والحاكم (٣٧/١)، وأحمد (٢٨٧/٤)، والطيالسي (ص: ١٠٢ ـ ١٠٣) وغيرهم.
وقد صححه جمع من الأئمة منهم الحاكم فقد قال بعد تخريجه: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا جميعاً بالمنهال بن عمرو وزاذان أبي عمر الكندي، وفي هذا الحديث فوائد كثيرة لأهل السنة وقمع للمبتدعة ولم يخرجاه بطوله. اهـ، وقال البيهقي في (عذاب القبر) ح(٢٠) حديث كبير صحيح الاسناد رواه جماعة من الائمة الثقات عن الأعمش. اهـ، وصححه أيضاً أبو عوانة الإسفرائيني كما في الفتح، ومنهم القرطبي في التذكرة، وابن القيم في الاجتماع (ص: ١١٢)، وقال في التهذيب (٦٣/١٣) مع العون ولم أعلم أحدا طعن في هذا الحديث الا أبا حاتم البستي، وابن حزم ومجموع ما ذكراه ثلاث (يعني ثلاث علل) فذكرها ثم ردها واحدة واحدة، وممن صححه من المعاصرين الشيخ الألباني في المشكاة وفي صحيح أبي داود (٩٠٢/٣).
وشيخنا المحدث العلامة مقبل الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين.

(٢) والحاصل أن هذه الاصول الثلاثة خصت بالذكر لسببين: ١) أن كل عبد يسأل عنها في قبره. ٢) أنها تجمع الدين كله، كما يفيده كلام العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ.

ومن رضى بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ـ ﷺ ـ رسولاً ونبيّاً فقد ذاق طعم الإيمان.

كما في صحيح مسلم برقم (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبيّاً ورسولاً»**.

وقد سبق الكلام على قوله: (**معرفة العبد ربه**...) الخ.

قال المؤلف رحمه تعالى: فإذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبود سواه، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، **وكل من سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم،**

• شَرْحٌ

الرب: هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح. اهـ، بدائع الفوائد (١٣٢/٤).

ومعاني الربوبية كثيرة منها الخلق والرزق والملك والتدبير وغير ذلك.

وقوله رحمه الله: (الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه).

نِعم الله منها الدينية والدنيوية، وعليه تكون تربية الله لعباده بنعمه عامة وخاصة، فالعامة يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر وغيرهم، كنعمة العافية والولد والزوجة والمال والجاه نحوها.

وأما الخاصة فهي نعمة الإسلام والسنة، نعمة العلم النافع، والعمل الصالح.

وقد قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص: ٣٣ ـ ٣٦):

والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة ونعمة مقيدة، فالنعمة المطلقة: هي المتصلة بسعادة الابد وهي نعمة الإسلام والسنة وهي النعمة التي أمرنا الله سبحانه ان نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط أهلها ومن خصهم بها وجعلهم أهل الرفيق الأعلى حيث يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم اهل هذه النعمة المطلقة وأصحابها أيضاً هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

والنعمة الثانية: النعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسط الجاه وكثرة الولد والزوجة الحسنة وأمثال هذا، فهذه النعمة مشتركة بين البر والفاجر والمؤمن والكافر، وإذا قيل: لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار، فهو حق. اهـ، وانظر مدارج السالكين (١/١٩).

قوله رحمه الله: (وهو معبودي ليس لي معبود سواه).

هذا من لازم الاعتراف بربوبية الله عز وجل فمن أقرَّ بربوبية الله لزمته عبادة الله وحده لا شريك له، فكما ان الله هو المنفرد بالخلق والملك والرزق والتدبير فهو الذي يستحق أن ينفرد بالعبادة دون ما سواه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال القرطبي في تفسيره (١/١٣٧): والرب: المعبود، ومنه قول الشاعر:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب. اهـ

قوله رحمه الله: (والدليل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢]).

الشاهد من الآية قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والحمد: هو مدح المحمود بصفات الكمال ونعوت الجلال مع محبته وتعظيمه، واللام في (لله) للاستحقاق. وأسباب الحمد اثنان:

(١) كمال الذات والأسماء والصفات، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]، وغير ذلك.

(٢) كمال إنعامه على عباده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢]، فإنه تعالى رباهم بنعمه الظاهرة والباطنة.

قوله رحمه الله: (وكل من سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم).

العالم في قول الله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، كل من سوى الله، ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]، وهو مأخوذ من العَلَم والعلامة لأنه يدل على خالقه، وانظر تفسير القرطبي (١/١٣٩).

قوله: (وأنا واحد من ذلك العالم)، أي: وأنا واحد من ذلك العالم المخلوق الذي خلقه الله وأوجب عليه القيام بعبادته وطاعته.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل بآياته ومخلوقاته،

● شرح

يقول سماحة العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ في شرحه للأُصول الثلاثة (ص: ٤٠):

إذا قيل لك أيها المسلم: بم عرفت ربك الذي أنت تعبده؟ فقل عرفته بآياته الكثيرة، وبمخلوقاته العظيمة التي تدل على أنه الرب العظيم، وأنه الخلاق العليم، وأنه المستحق لأن يعبد، وانه الذي يخلق ما يشاء، ويعطي ويمنع، وينفع ويضر بيده كل شيء سبحانه وتعالى، فهو المستحق بأن نعبده بطاعته ودعائه واستغاثته وسائر أعمالنا وعباداتنا لان الله خلقنا لهذا.اهـ.

قوله رحمه الله: (بآياته).

قال العلامة ابن عثيمين ـ حفظه الله ـ: الآيات جمع آية وهي العلامة على الشيء التي تدل عليه وتبينه.اهـ، من شرح ثلاثة الأصول (ص: ٤٢).

وآيات الله نوعان: ١) كونية: كالليل والنهار والشمس والقمر وسائر المخلوقات. ٢) شرعية: وهي الوحي المنزل على رسوله ـ ﷺ ـ، ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [القصص: ٢]، وقوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النمل: ١]، وغير ذلك.

وآيات الله الكونية تدل على عظمته وقدرته وعلمه وحكمته وغير ذلك، وآياته الشرعية تدل على عدله وعلمه وحكمته ورحمته وغير ذلك.

***

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السموات والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهن، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت: ٣٧]، **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]،

• شَرْحُ

سبق أن بينا أن آيات الله منها الكونية ومنها الشرعية، فلو قال قائل: أليست السموات والأرض وما فيهن وما بينهن من آيات الله؟ قلنا: بلى، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٤٨/١): فالمخلوقات كلها آيات للخالق. اهـ، فإن قال: فكيف فرَّق المؤلف هنا بين الآيات والمخلوقات مع أنها جميعاً من آيات الله؟ فالجواب: أن هذا من باب عطف الخاص على العام فإن الآيات تشمل الكونية والشرعية ومنها الليل والنهار والشمس والقمر، فهي بهذا الاعتبار أعم.

وأما أن يقال: إن الجميع آيات مخلوقة، وخص الليل والنهار والشمس والقمر ونحوها، بالذكر لأنها تتغير وتذهب وتاتي بخلاف السموات والأرض، فهي من هذا الباب أظهر، والله اعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.... إلى قوله....: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (١٣٠/٤): يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة وأنه الذي لا نظير له، على ما يشاء قادر ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجُمَع والشهور والأعوام ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الإجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه لا يغفر أن يشرك به. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٢٠٥/٥): يقول تعالى ذكره: أن سيدكم ومصلح أموركم أيها الناس هو المعبود الذي له العبادة من كل شيء الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام.اهـ.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، مذهب السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين وعامتهم أن الله تعالى مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله دون تحريف ولا تمثيل ولا تكيف ولا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، خلافاً للمبتدعة الضلاّل الذين قالوا: استولى، وقد فصلت القول على هذه المسألة في شرحي للقول المفيد وغيره والحمد لله وبينت أن معنى استوى على العرش أي علا عليه وارتفع.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٢٩٥/٢): أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه.اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: المعنى أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ولهذا قال منبهاً ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي له الملك والتصرف.اهـ.

قلت: ولا شك أن الخلق غير الأمر.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، قسم ابن القيم ـ رحمه الله ـ في بدائع الفوائد (١٨٥/٢) البركة إلى نوعين: **أحدهما**: هي فعله والفعل منها مبارك، **والثاني**: بركة تضاف إليه والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال ذلك لغيره ولا يصلح إلا له عز وجل فهو سبحانه المبارِك

عبده ورسوله المبارَك كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ثم ذكر أدلة ذلك. اهـ، بتصرف يسير.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والرب هو المعبود، والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]، **قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة،**

• شرح

قوله: (والرب هو المعبود): أي هو الذي يستحق العبادة دون ما سواه لأنه المنفرد بالخلق والرزق والملك وغير ذلك.

والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، كما في بدائع الفوائد لابن القيم (١٣٢/٤).

وقد قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسير هاتين الآيتين في تفسيره (٥٧/١-٥٨): ثم استدل الله على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم الذي ربَّاكم بأصناف النعم الظاهرة والباطنة، فـ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ تستقرون عليها، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس والقمر والنجوم، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، والسماء هو كل ما علا فوقك، فهو سماء، ولهذا قال المفسرون المراد بالسماء ها هنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماءً، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه، وزروع وغيرها، ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ به ترتزقون، وتتقوتون،

وتعيشون وتفكّهون ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أشباهاً ونظراء من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبَّرون، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء ولا ينفعونكم ولا يضرون ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، في الخلق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال، فكيف تعبدون معه آخرين آلهة، مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب وأسفه السفه، وهذه الآيات جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وهو ذكرُ وبيان للدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة ما سواه، وهو ذكرٌ توحيد الربوبية المتضمن انفراده بالخلق والرزق، والتدبير، فإذا كان كل أحدٍ مُقِرّاً بأنه ليس له شريك في عبادته وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري تعالى، وبطلان الشرك. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه.اهـ.

وقد تكلم الإمام ابن القيم على هاتين الآيتين بكلام نفيس جدّاً في بدائع الفوائد (١٣١/٤ ـ ١٣٦) ولولا خشية الإطالة لنقلته.

* * * *

قوله رحمه الله: (قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة):

رجعت إلى عدة نسخ من تفسير ابن كثير فوجدت لفظه كالتالي: ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده لا يشرك به غيره.اهـ، فلعل المؤلف ـ رحمه الله ـ كتب ذلك من حفظه، والمعنى متقارب.

* * * *

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان، ومنه الدعاء والخوف والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والانابة والاستعانة، والاستعاذة والاستغاثة والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]. **فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر والدليل قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧]،

● شرح

بعد أن بين المؤلف ـ رحمه الله ـ أنه يجب علينا أن نفرد الله بالعبادة لأنه المنفرد بالخلق والملك والتدبير بين بعض أنواع العبادة، وأصل العبودية في اللغة، الخضوع والتذلل، انظر لسان العرب (٣/٢٧١).

والعبادة في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، انظر مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩)، وما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ من العبادات منه ما هو من الأقوال ومنه ما هو من الأعمال منه العبادة الظاهرة ومنه عبادة باطنة، وسياتي إن شاء الله الكلام على هذه العبادات مفصلاً.

قوله: والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]):

سبق الكلام على هذه الآية وأن الدعاء هنا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، وأن قوله: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم كل مدعو من دون الله، وفي الآية دلالة على أن المساجد إنما بنيت لعبادة الله وإعلاء كلمته والدعوة إليه لا لعبادة غيره والإشراك به سبحانه وتعالى من دعاء غير الله وطلب المدد والغوث ونحو ذلك من الموتى فإن هذا شرك بالله.

وقوله: (فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ الآية [المؤمنون: ١١٧].

● شرح:

قوله: (فمن صرف منها شيئاً لغير الله)، أي من العبادات السابقة المذكورة.

قوله: (فهو مشرك كافر)، أي الشرك الاكبر المخرج من الملة ولذلك قال: مشرك كافر، ليبين أن صرف شيء من هذه العبادات لغير الله شرك أكبر يكفر صاحبه عياذاً بالله.

ووجه الدلالة من الآية أن دعاء غير الله شرك وقد بين في آخر الآية أن من دعا معه إلهاً آخر أنه كافر وفي هذه الآية وعيد شديد لمن أشرك مع الله غيره. وقوله: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، أي لا حجة له على ذلك وهذا قيد لا مفهوم له، وإنما أراد الله أن يبين عظم جهل وضلال من عبد معه غيره وليس له على ذلك حجة ولا برهان.

تنبيه: الشرك والكفر، منه الأكبر والأصغر، فالأكبر يخرج من الملة والاصغر لا يخرج من الملة.

والكفر يكون بالقول والعمل والاعتقاد، وكذلك الشرك.

وأن الكفر العملي منه المخرج من الملة ومنه غير المخرج من الملة، وهكذا الشرك العملي، فمنه المخرج من الملة كالذبح لغير الله، ومنه غير المخرج من الملة كيسير الرياء، وقد فصلت القول في هذا في شرحي للقول المفيد وشرحي لكتاب التوحيد، وانظر الصلاة لابن القيم (ص: ٧٢ ـ ٧٦)، ومدارج السالكين (٩/٣٦٤ ـ ٣٦٧، ٣٧٣ ـ ٣٧٦).

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة»، والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]،

• شرح

بعد أن ذكر المؤلف بعض أنواع العبادة على سبيل الإجمال وبين حكم من صرف شيئاً منها لغير الله شرع في بيان أدلة كل نوع منها، وقد بدأ المؤلف ـ رحمه الله ـ بالدعاء لأهميته ولأن كثيراً من الذين وقعوا في الشرك كان شركهم بدعاء غير الله.

أما الحديث الذي ذكره ـ رحمه الله ـ فهو حديث ضعيف[1]، ولكن يغني عنه حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«الدعاء هو العبادة»**، ثم قرأ: «﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]».

والحديث دلالته ظاهرة على أن الدعاء عبادة فيكون صرف هذه العبادة لغير الله شرك، وقد قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ في عارضة الأحوذي (١٢٦/١٢): وجه تسمية الدعاء عبادة بيِّن، لأن فيه الإقرار بالعجز من العبد والقدرة لله وذلك غاية الذل والخضوع، وذل السؤال لا يقوم به بذل النوال وكل سؤال منقصة إلا سؤال الخالق سبحانه. . . .، إلى أن قال:

الثالثة: مطلق القول يقتضي أن الدعاء جملة العبادة كما يقال المال الإبل والناس العلماء، ويصح هذا فيه من وجهين: أحدهما أن كل طاعة

---

(١) حديث ضعيف أخرجه الترمذي في سننه (٤٥٦/٥) وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، وأخرجه الطبراني في الدعاء (٧٨٩/٢/٨)، وفي الأوسط (٢٩٣/٣ ـ ٢٩٤/٣٩٦،٣١٩٧) وقال لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبد الله تفرد به ابن لهيعة فعلة هذا الحديث ابن لهيعة.

سؤال لأنها لطلب العوض، والثاني أنه لابدَّ من الذل في الأغلب مع الدعاء في الطاعات فحمل على الأكثر.اهـ.

وانظر شأن الدعاء للخطابي (ص: ٤).

وأما معنى الدعاء وحقيقته:

فقد قال الإمام الخطابي في شأن الدعاء (ص: ٤): ومعنى الدعاء: استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده اياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذِّلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل واضافة الجود والكرم إليه.اهـ.

وأما وجه الدلالة من الآية على أن الدعاء عبادة فمن وجوه: ١) ان الله أمر به، ولا يأمر الله الا بما كان واجباً أو مستحبّاً. ٢) ان الله سماه عبادة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾. ٣) إن الله رتب عليه استجابته لعبده، فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

ومعنى ﴿دَاخِرِينَ﴾: أي أذِلَّة صاغرين.

أنواع الدعاء:

الدعاء نوعان: ١) دعاء مسألة. ٢) دعاء عبادة.

والدعاء في القرآن يراد به دعاء المسألة تارة، ويراد به دعاء العبادة تارة، ويراد بهما مجموعهما تارة أخرى، انظر مجموع الفتاوى (١٥/١٠-١١)، وبدائع الفوائد لابن القيم (٢/٤).

وقد قال الشيخ العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ في شرحه لثلاثة الأصول (ص: ٥٢):

واعلم أن الدعاء نوعان، دعاء مسألة ودعاء عبادة، فدعاء المسألة: هو دعاء الطلب أي طلب الحاجات، وهو عبادة إذا كان من العبد لربه، لأنه يتضمن الافتقار إلى الله تعالى، واللجوء اليه، واعتقاد أنه كريم قادر

واسع الفضل والرحمة، ويجوز إذا صدر من العبد لمثله من المخلوقين إذا كان المدعو يعقل الدعاء ويقدر على الإجابة كما سبق في قول القائل: يا فلان أطعمني.

وأما دعاء العبادة فأن يتعبد به للمدعو طلباً لثوابه وخوفاً من عقابه، وهذا لا يصح لغير الله وصرفه لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة وعليه يقع الوعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. اهـ.

قلت: إذا تبين لك ما سبق علمتَ أن الذين يعكفون عند القبور يدعونها مع الله أو من دون الله ويطلبون منها الغوث والمدد وقضاء الحاجات ودفع الكربات، واقعون في الشرك الأكبر المخرج من الملة، ويحسبون انهم يحسنون صنعاً، وهكذا من يدعو ابن علوان والعيدروس والهادي وغيرهم من الموتى، لاسيما ما يجري على ألسنة النساء فإن وقعت على الأرض أو وقع ولدها أو غيره قالت: يا رسول الله، يا ابن علوان، ونحو ذلك. ولا تكاد تجد بلداً من بلاد المسلمين الا وجدت فيه من هذا البلاء الا من رحم الله وقليل ما هم، هذا كله مع كثرة الآيات القرآنية الصريحة في تحريم دعاء غير الله والوعيد الشديد لمن اقترف ذلك وأنه ضال مضل وأن ما يدعى من دون الله أو معه لا يملك لداعيه دفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وأنها لا تستجيب لمن دعاها وغير ذلك مما يبين عجزها وضعفها قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤ ـ ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن

قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤].

وقال الله لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢٠-٢١]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

وفي صحيح البخاري برقم (٤٤٩٧) من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ـ ﷺ ـ كلمة وقلت أخرى، قال النبي ـ ﷺ ـ: **«من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»**، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعوا لله نداً دخل الجنَّة. فدعاء غير الله محرم بالكتاب والسنة والإجماع، والعقل، وقد بينت ذلك في شرحي للقول المفيد والله الهادي إلى سواء السبيل.

■ ■ ■ ■

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]،

● شرح

أي الدليل على أن الخوف عبادة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ووجه الدلالة من الآية: ١) أن الله أمر بالخوف منه ولا يأمر إلا بما كان واجباً أو مستحباً. ٢) ان الله جعل الخوف منه شرطاً في تحقيق الإيمان، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في طريق الهجرتين (ص: ٢٦٣): أمر الله سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعل الخوف منه شرطاً في تحقيق الإيمان إلى أن قال: والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه. اهـ.

وقال ـ رحمه الله ـ في إغاثة اللهفان (١/١١٠): ومن كيد عدو الله

تعالى ـ الشيطان ـ أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان أخبرنا الله تعالى عنه بهذا فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: يعظمهم في صدوركم ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم. اهـ.

والخوف أحد أركان العبادة الثلاثة، وأركانها: ١) الخوف. ٢) الرجاء. ٣) المحبة.

فالمحبة رأس العبادة والخوف والرجاء جناحاها، وانظر مدارج السالكين (٥١٧/١)، وتفسير ابن كثير (٤٨/١)، والخوف من أعظم العبادات القلبية الواجبة وهو فرض على كل أحد، وانظر الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية ومدارج السالكين لابن القيم (٥٤٨/١): إلا أنه يجب الحذر من القنوط من رحمة الله واليأسِ من روح الله، بل يعمل المرء ويخلص ويحسن الظن بربه. والخوف المحمود ما حملك على طاعة الله واجتناب محارمه، وقد قسم بعض العلماء الخوف إلى أربعة أقسام:

١) خوف من الله، وهذا الخوف من أعظم العبادات القلبية التي يتقرب بها إلى الله لأنه القادر على كل شيء، قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ينفع ويضر ويعطي ويمنع سبحانه وتعالى وهذا الذي يسميه بعض العلماء خوف السرِّ.

٢) خوف شركي أو شرك الخوف، وهو ان يصرف هذه العبادة القلبية السابقة في القسم الأول لغير الله من المقبورين والأصنام والجن فيتعبد لهم بهذا الخوف، وكم من الناس اليوم يصرفون هذه العبادة القلبية لغير الله، ومن ذلك أن أحدهم إذا توجهت عليه اليمين حلف بالله صدقاً أو كذباً، فإن قيل له: احلف بصاحب القبر الفلاني أو الولي الفلاني ـ وهذا غير جائز شرعاً ـ لم يحلف إن كان كاذباً وما ذلك إلا لخوفه منه، عياذاً بالله، وقد

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٩١/١)، فأما الشرك في الإلهية فهو: أن يجعل لله نداً في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته، فهذا الشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة منه. اهـ.

٣) خوف يكون به صاحبه عاصياً، كأن يترك واجباً من الواجبات، أو يرتكب محرماً من المحرمات خوفاً من الناس وليس مكرهاً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

٤) خوف طبيعي كخوف الإنسان من عدوٍّ أو سبع أو حيَّة أو خوف من غرق أو نار أو نحو ذلك، فهذا لا يذم صاحبه لكن لا يجوز أن يخاف عدوه خوفاً يمنع من جهاده إذا كان ذلك مشروعاً وهو قادر على ذلك. ومن الخوف الطبيعي ما ذكره الله عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وقال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، فهذا الخوف الطبيعي لا يلام صاحبه ولا ينقص بسببه الإيمان لأن الله جَبَل الناس عليه.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ في كتابه «القول السديد»

(ص: ١١٦) نوعاً آخر من الخوف، وهو الخوف الوهمي، فقال: «. . . وإن كان هذا خوفاً وهمياً كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً أو له سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء وقد تعوذ النبي ـ ﷺ ـ من الجبن، فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع حتى إن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمناً وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية وكمال توكلهم. اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]،

● شرح

أي الدليل على أن الرجاء عبادة هذه الآية.

والرجاء في اللغة: الأمل، وفي الإصطلاح: تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل. اهـ، التعريفات للجرجاني (ص: ١٤٦).

قال الشيخ العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ في شرحه لثلاثة الأصول (ص: ٥٣): والرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله عز وجل، وصرفه لغير الله شرك إما أصغر وإما أكبر بحسب ما يقوم بقلب الراجي. اهـ.

قلت: ومن أدلة هذا الباب قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فإن هذه الآية تضمنت مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه، الحب والخوف والرجاء، وانظر مدارج السالكين (٣٥/٢).

ولا يكون الرجاء محموداً ممدوحاً إلا مع العمل، وتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين (٣٥/٢): ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل. اهـ.

وقال ـ رحمه الله ـ في المدارج (٣٦/٢): والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم، فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها، فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وكرمه، والثالث: رجل متمادٍ في

التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب. اهـ.

وقال ـ رحمه الله ـ (٤٣/٢): وبالجملة فالرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها، ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها. اهـ.

فالرجاء يستلزم الخوف لولا ذلك لكان آمناً، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وانظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ـ رحمه الله ـ (ص: ٣٣٠).

[ومما ينبغي أن يُعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه أموراً: أحدها: محبة ما يرجوه، والثاني: خوفه من فواته، الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان، وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر]، انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ـ رحمه الله ـ (ص: ٣٢٦).

فائدة: الآية التي أوردها المؤلف ـ رحمه الله ـ وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ...﴾ الآية، تضمنت ركني قبول العمل، الإخلاص والموافقة لسنة رسول الله ـ ﷺ ـ، وانظر تفسير ابن كثير ـ رحمه الله ـ (١٤٧/٣) بمعناه.

فائدة أخرى:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين (٥١٧/١) في آخر منزلة الخوف: «فصل:

القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد، وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب فالمحبة هي المركب والرجاء حادٍ والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه». اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]،

• شرحٌ

أي الدليل على أن التوكل عبادة هاتان الآيتان، ووجه الدلالة من الآية الأولى: ١) أن الله أمرنا أن نتوكل عليه وهذا يدل على أن التوكل عبادة. ٢) أن الله جعل التوكل شرطاً في الإيمان. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في طريق الهجرتين (ص: ٢٣٧-٢٣٨) في الكلام على هذه الآية: فجعل التوكل شرطاً في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل. اهـ.

ووجه الدلالة من الآية الثانية: أن الله وعد من توكل عليه بأن يكفيه، ولا يكون هذا الجزاء العظيم وهو كفاية الله لعبده جميع ما يحتاجه إلاّ على عبادة عظيمة.

والتوكل: عبادة قلبية عظيمة واجبة، وهو صدق اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الأخذ بالأسباب المأذون بها شرعاً.

ومن أدلة التوكل أيضاً، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وفي البخاري برقم (٦٤٧٢)، ومسلم برقم (٣٩١٠) في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**».

وفي صحيح البخاري برقم (٧٣٨٣)، ومسلم برقم (٢٧١٧) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «**اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**».

وقد بين ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن الناس في توكلهم على الله مراتب شتّى حيث قال: . . . . فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه وإعلاء كلمته، وجهاد اعدائه، وفي محابِّه وتنفيذ أوامره، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامة نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه، من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد ونحو ذلك، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه، قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من اصحاب الطاعات، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم، فأفضل التوكل: التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس ـ وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في

الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعدُ في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل على الله في حصول رغيف، ومن صدق توكله على الله في شيء ناله، فإن كان محبوباً له مرضيّاً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان له ما حصل له بتوكله مضرَّة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إن لم يستعن به على طاعته والله اعلم. اهـ، من مدارج السالكين (١١٣/٢ ـ ١١٤).

والأخذ بالأسباب المشروعة لا ينافي التوكل بل ذلك دليل على صحة التوكل وصدق المتوكل شرعاً وعقلاً، وقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين (١١٦/٢): وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد. اهـ.

وقد انقسم الناس في هذا إلى طرفين ووسط، فأحد الطرفين، عطَّل الأسباب محافظة على التوكل، والثاني: عطَّل التوكل محافظة على السبب، والوسط: عَلِمَ أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله في نفس السبب، انظر الروح لابن القيم (ص: ٥٦٥).

فالقسم الأول زعم أصحابه أن التوكل لا يتم إلا بترك السبب وأن فعل الأسباب يقدح في التوكل كغلاة المتصوفة ويستدلون بحديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«لو أنكم توكلون على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً وتعود بطاناً»**، والحديث حجة عليهم لا لهم فإن فيه أن هذه الطيور أخذت بالأسباب فغدت وراحت ولهم شبهةٌ واهيةٌ أخرى. والطرف الثاني: الذين غالوا في الأخذ بالأسباب وتركوا التوكل على الله سبحانه وتعالى فجعلوا السبب هو المؤثر الأول في حصول المطلوب ودفع المكروه ولا شك أن هذا شرك ظاهر عياذاً بالله.

والوسط: هم أهل الحق والصواب أهل السنة والجماعة الذين صدقوا

في توكلهم على الله عز وجل، وأخذوا بالأسباب المشروعة طاعة لله تعالى، واتّباعاً لنبيه - ﷺ -.

ومن الأدلة على مشروعية الأخذ بالأسباب: قوله تعال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]، وحديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه، أن رسول الله - ﷺ - قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣٦٢) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٤٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الآية [البقرة: ٦٠].

وماذا تفعل العصا وحدها ولكن الله جعلها في هذا الموضع سبباً، وأمر الله كليمه ورسوله موسى أن يضرب بعصاه البحر: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، والله قادر على فلقه دون ضرب موسى له بالعصا، ولكن الله يأمر بالأخذ بالأسباب، وأمثلة هذا من الكتاب والسنة كثيرة جداً والله الموفق للصواب هو حسبنا ونعم الوكيل.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]،

• شرح

أي هذه الآية دليل على أن الرغبة والرهبة والخشوع من العبادات، ووجه الدلالة أن الله أثنى على أنبيائه ورسله بأنهم متصفون بهذه الصفات العظيمة.

والرغبة: السؤال والطمع، وتأتي بمعنى الضراعة والمسألة، انظر لسان العرب (٤٢٢/١).

والرهبة: الخوف والفزع، انظر لسان العرب (٤٣٦/١).

وأما الخشوع: فقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «مدارج السالكين» (٥٥٨/١): إن أصله في اللغة: الانخفاض والذل والسكون، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، أي سكنت وذلت وخضعت. اهـ.

والخشوع في الاصطلاح: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، انظر مدارج السالكين (٥٨٨/١).

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المصدر السابق: وأجمع العارفون أن الخشوع محلّه القلب، وثمرته على الجوارح. اهـ.

وهذه عبادات قلبية عظيمة من عَمَّرَ بها قلَبه كانت الثمرة تعظيم الله ومحبته والقيام بشرعه والرضى بقضائه وقدره.

■ ■ ■ ■

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى.... ﴾ الآية [البقرة: ١٥٠]،

● شرح

أي الدليل على أن الخشية عبادة هذه الآية، ووجه الدلالة من هذه الآية أن الله أمر بخشيته ولا يأمر الله إلا بواجب او مستحب.

وأما معنى الخشية: فقد قال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن (ص: ١٥): الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصَّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. اهـ.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين (٥٤٩/١): الخشية:

أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فهي خوف مقرون بمعرفة. اهـ.

وقد أمر الله بخشيته لأنه القادر على كل شيء وبيده النفع والضر والعطاء والمنع.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ...﴾ الآية [الزمر: ٥٤]،

• شرح

أي الدليل على أن الإنابة عبادة هذه الآية، ووجه الدلالة على ذلك أن الله أمر عباده بالإنابة إليه.

ومعنى الإنابة إلى الله: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل. انظر المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ١٠٩)، والإنابة توبة وزيادة والزيادة هي الإقبال على الله بالعبادات والطاعات.

وقد مدح الله المنيبين في غير ما آية، وأخبر أن جنته وثوابه لأهل الخشية والإنابة فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق: ٣١ - ٣٤].

أقسام الإنابة:

قال ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين (٤٦٧/١): والإنابة: إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى

في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب الا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك. اهـ.

والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه، وقاله ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المصدر السابق.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله»،

• شَرْحٌ

أي الدليل على أن الاستعانة عبادة هذه الآية وهذا الحديث، والاستعانة طلب العون، انظر المفردات للأصفهاني (ص: ٣٥٦)، ووجه الدلالة من الآية أن الله قدم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على العامل ﴿نَسْتَعِينُ﴾ وتقديم ما حقه التأخير في لغة العرب يفيد الحصر والاختصاص، وعليه فتكون الاستعانة بالله عبادة، ووجه الدلالة من الحديث الأمر بالاستعانة بالله، ولا يأمرنا رسول الله ـ ﷺ ـ بمعصية.

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (١/٩٠): .. ولهذا قيل إن الآية جمعت جميع أسرار القرآن، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي والمحبة والخوف

والرجاء كما ذكرنا، وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم وترك الاختيار وجميع العبوديات داخلة في ذلك. اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره (٤٨/١) في الكلام على هذه الآية: . . . وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾ وكرر للاهتمام والحصر، أي لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف الفاتحة سِرُّ القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل. اهـ.

ـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ علاج لمرضين عظيمين: الرياء والكبرياء.

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين (٥٤/١): وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء، فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرض الكبرياء والعجب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦] عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية وتمت عليه النعمة، وكان من المنعَم عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه. اهـ.

وقد قسّم الإمام ابن القيم الناس باعتبار العبادة والاستعانة إلى أربعة أقسام:

(١) أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ـ جعلنا الله منهم ـ.

(٢) الذين أعرضوا عن عبادة الله والاستعانة به.

(٣) من له نوع عبادة بلا استعانة.

(٤) من له استعانة بلا عبادة.

وانظر هذه القسمة الرباعية مفصَّلة مبيَّنة في مدارج السالكين (١/٧٨-٨٢).

وأما قوله ـ ﷺ ـ: «**إذا استعنت فاستعن بالله**»، فقد قال الحافظ ابن رجب في شرحه لهذا الحديث في جامع العلوم والحكم (ص: ١٩١): وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن المعنى: لا تَحَوُّلَ للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه. اهـ.

إذا تبين لك ما سبق فاعلم أن الاستعانة بالله التي حوَت الافتقار والذل والتفويض والتوكل والإقرار بان الله على كل شيءٍ قدير، من أعظم العبادات والقربات ومن استعان بغير الله على هذا الوجه فقد وقع في الشرك عياذاً بالله.

فالاستعانة بالله عبادة، وهكذا الاستعانة بالاسباب المشروعة المحبوبة إلى الله تعتبر عبادة أيضاً، كالاستعانة بالصبر والصلاة. قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥].

ـ ما حكم الاستعانة بغير الله؟

الجواب: إن كانت الاستعانة بالموتى فهذا شرك مخرج من الملة لأنه لا يستعين بهم إلا لاعتقاده أنهم ينفعون ويضرون، وهكذا الاستعانة بالأحياء فيما لا يقدر عليه إلا الله يعتبر شركاً أكبر عياذاً بالله.

واما الاستعانة بالحي القادر على أمر جائز شرعاً فهذا من التعاون على البر والتقوى ومن الإحسان إلى الخلق، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولا يجوز لمسلم أن يعين غيره على معصية الله من شرك أو بدعة او محرم، فإن ذلك من التعاون على الإثم والعدوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①﴾ [الفلق: ١]، **وقوله تعالى:** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①﴾ [الناس: ١]،

• شرح

معنى الاستعاذة:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في بدائع الفوائد (٢/٢٠٠-٢٠١):

اعلم أن لفظة عاذ وما تصرف منها تدل على التحرُّز والتحصُّن والنجاة، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه... إلى أن قال: فمعنى أعوذ: ألتجئ وأعتصم وأتحرز، وفي أصله قولان: أحدهما: انه مأخوذ من الستر، والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة،... والقولان حق، والاستعاذة تنتظمهما معاً، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه، مستمسك به، معتصم به، قد استمسك قلبه ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً، وقصده به، فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفرَّ إليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به، والتجأ اليه، وبعد؛ فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم

بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه، امر لا تحيط به العبارة. اهـ.

أصول الاستعاذة ثلاثة:

١) نفس الاستعاذة. ٢) المستعاذ به. ٣) المستعاذ منه. انظر بدائع الفوائد (٢/١٩٩-٢٠٠).

وقد قال ابن القيم في المستعاذ به في بدائع الفوائد (٢/٢٠٣): الفصل الثاني: في المستعاذ به، وهو الله وحده رب الفلق، ورب الناس ملك الناس إله الناس الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به ولا يستعاذ بأحد من خلقه بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره، وقد أخبر تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]. اهـ.

وأما المستعاذ منه:

فإن سورة الفلق قد تضمنت الاستعاذة من أربعة أمور:

١) شر المخلوقات التي لها شر عموماً. ٢) شر الغاسق إذا وقب.

٣) شر النفاثات في العقد. ٤) شر الحاسد إذا حسد.

وتضمنت سورة الناس: الاستعاذة من شر وسواس الجن والإنس، ففيها الاستعاذة من شر شياطين الجن والإنس والله المستعان، وانظر تفصيل هذا المجمل في بدائع الفوائد لابن القيم ـ رحمه الله ـ (٢/٢٠٤ ـ ٢٠٦).

وبعد ما سبق فاعلم أن الاستعاذة على الصفة السابقة لا تكون إلا بالله او بصفة من صفاته، كما في صحيح مسلم برقم (٣٨١)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**.

وفي صحيح مسلم برقم (٢٦٣٥)، من حديث خولة بنت حكيم، السلميَّة قالت: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»، ففي هذين الحديثين الاستعاذة بصفات الله سبحانه وتعالى.

فائدة: وفيها الفرق بين العياذ واللياذ:

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٣٤/١ ـ ٣٥): فصل: والاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجانبه من كل شر ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به ممن أُحاذره
لا يجبر الناس عظماً انت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»: أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أُمِرْتُ به، او يحثني على فعل ما نُهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه. اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]،

• شرح

الاستغاثة طلب الغوث، انظر المفردات للأصفهاني (٣٦٨)، فإن السين والتاء دالة على الطلب، فأستعيذ بالله أي أطلب العياذ به، وأستخير الله أي

أطلب خيرته، وأستغفره أي أطلب مغفرته وهكذا، وانظر «بدائع الفوائد» (٢٠١/٢).

والاستغاثة من أخص أنواع الدعاء فهي طلب إنقاذ من كرب وضيق وشدَّة، ووجه الدلالة من الآية، أن الله علق استجابته على استغاثة أوليائه يوم بدر، وهذا دليل على أنها عبادة قربة، وأن الله يحبها ويرضاها، والله اعلم.

ـ ما حكم الاستغاثة بغير الله؟

الجواب: قد سبق أن الاستغاثة طلب الغوث والإنقاذ من شدَّة وكربة، فمن طلبها من الأموات والأصنام ونحو ذلك فقد وقع في الشرك الأكبر، فإن الله يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ۝١٤﴾ [الرعد: ١٤].

وأما الاستغاثة بالحي القادر الحاظر في أمر مباح فهذا جائز، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾ [القصص: ١٥].

وإنك لتأسف على أقوام تركوا دعاء الله والاستغاثة به وهو الخالق الرازق المالك المدبر وهو على كل شيء قدير، وتوجهوا إلى الموتى الذين أصبحوا مرتهنين بأعمالهم لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فيدعونهم مع الله ويستغيثون بهم وهم بذلك مسيئون إلى أنفسهم فإنهم واقعون في الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة، ومسيئون إلى الموتى حيث جعلوهم في منزلة الله، مع حرمانهم من دعائهم واستغفارهم لهم فإن الميت ينتفع بدعاء الحي واستغفاره والله المستعان.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، ومن السنة: «لعن الله من ذبح لغير الله»،

• شرح

وجه كون الذبح عبادة من هذه الآية أن من معاني النسك الذبح، والله يقول لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ وذبحي ـ على هذا التفسير ـ ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾، أي أن الذي يستحق هذه العبادات هو الله وحده لا شريك له.

ويقول تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]، فأمر أن تكون الصلاة والنحر له وهذا يدل على أنها عبادات وطاعات بل الذبح أعظم العبادات المالية.

وأما الحديث فقد أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٩٧٨): من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«.... ولعن الله من ذبح لغير الله»**.

وأصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء. اهـ النهاية لابن الأثير (٤/٢٥٥).

وهذا يدل على عظم حرمة الذبح لغير الله من الأنداد، وقد قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:

«وأما الذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى[١] كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما، وللكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلماً

(١) ويدخل فيه أيضاً من ذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً باسم الله.

أو نصرانياً او يهودياً، نص عليه الشافعي، واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة، كان ذلك كفراً، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتداً». اهـ.

والذبح على أقسام:

١) عبادة. ٢) شرك. ٣) بدعة. ٤) مباح.

فالعبادة أن يذبح لله تقرباً وتعظيماً، ومنه الهَدي والأضحية، وأن يذبح ذبيحة ويفرقها بين الفقراء والمساكين.

وأما الذبح الذي هو شرك، فكأن يذبح ذبيحة يتقرب بها لغير الله تعبداً وتعظيماً وذلك أنواع كثيرة:

الذبح للجن تقرباً إليهم وخوفاً منهم واسترضاءً لهم كما يفعل بعض الجهلة إذا أنعم الله عليه ببناء بيت، ذبح للجن على عتبة ذلك البيت عند دخوله لئلا يسكنون ذلك البيت ولئلا يصيبونه أو بعض أهله بسوء، أهكذا تشكر نِعَم الله؟ سبحانك هذا بهتان عظيم، وآخرون ينعم الله عليهم بالزواج فعند دخول الزوجة بيت زوجها تُذبح أمامها ذبيحة لدفع العين أو لدفع الجن، وبعض الناس إن حفر بئراً وخرج منها الماء ذبح للجن ذبيحةً ويعتقدون أنهم إن لم يفعلوا ذلك اعترض الجن ماء البئر فقلَّ أو انعدم، وبعضهم إن سقط ولده أو أحد أهل بيته من مكان شاهق وسلَّمه الله قاموا بالتقرب إلى الجن بذبيحة يسمونها فِدواً لئلا يمسوا المتردي بسوء!

ومنهم من تأتيهم الشياطين في المنام وتخبرهم بأن في المكان الفلاني كنزاً أو ماءً، فإن أرادوا استخراج ذلك الكنز أو ذلك الماء فقبل الحفر لابدَّ من ذبح ذبيحة او أكثر للجن ليخلوا بينهم وبين ذلك الكنز أو ذلك الماء.

ومن ذلك الذبح للقبور تقرباً إلى أصحابها ليجلبوا لهم منفعة أو يدفعوا عنهم مضرَّة من شفاء مريض أو ردِّ ضالة ونحو ذلك.

ومن ذلك الذبح للأصنام والأشجار والنجوم ونحو ذلك للعلَّة السابقة.

ـ ما حكم ما يسمى بالهَجَر؟

الجواب: إذا كان ما يذبحه الظالم لغيره في دم أو مال أو عرض يقصد به التقرب والتعظيم والاسترضاء، بحيث لا يقبل المظلوم إلا أن يراق الدم أمامه أو عند باب بيته فهذا من الذبح لغير الله الذي يكون شركاً والعياذ بالله.

وأما القسم الثالث الذي هو بدعة: فمن ذلك ما يفعله كثير من الجهلة عند القحط والجدب إذا خرجوا لصلاة الاستسقاء أخذوا معهم إلى المصلى ثوراً أو بقرةً سوداء أو كبشاً وذبحوا ذلك بعد الصلاة تقرباً إلى الله لينزل المطر ثم يتركون تلك الذبيحة للكلاب والنسور، ويعتقد الكثير منهم أن الله لا ينزل مطراً إلا إذا فعلوا ذلك، وهذا العمل من البدع المنكرة ومن إضاعة المال، فقد وقع القحط على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى عهد خلفائه الراشدين وصحابته الغر الميامين ولم يفعلوا من ذلك شيئاً والله تعالى يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ويقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ويقول رسوله ـ ﷺ ـ كما في الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»**، وما لم يكن يومئذٍ ديناً لا يكون اليوم ديناً وإنما يعبد الله بما شرع لا بالأهواء والبدع وإنما المشروع عند القحط التوبة والاستغفار والتضرع إلى الله وأداء صلاة الاستسقاء ورد المظالم إلى أهلها والاستقامة على شرع الله فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقد يبتلي الله هؤلاء فينزل المطر بعد ذبحهم لهذه الذبائح فيظنون أنما أنزل الله الأمطار عندما فعلوا ذلك والله المستعان.

وأما القسم الرابع وهو المباح: فمن ذلك أن يذبح الإنسان ليبيع اللحم للناس أو يذبح ليأكل هو وأهله، فهذا مباح وبالنية الصالحة يرتقي إلى رتبة العبادة وإنما الأعمال بالنيات، والله اعلم.

ما حكم أكل الذبائح في الصور الثلاث المتقدمة؟

الجواب: لا يجوز أكل لحوم شيء من تلكم الذبائح او بيع شيء منها

إذا أعطى من لحمها بل ترمى للكلاب قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . . .﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ وهذه اللحوم منها ما أهل لغير الله ومنها ما هو بدعة ضلالة.

سؤال آخر: ما حكم من فعل شيئاً مما تقدم جاهلاً؟

الجواب: من فعل شيئاً مما تقدم جاهلاً ولم يفرِّط في سؤال أهل العلم فهو إن شاء الله معذور بجهله لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، والأدلة على ذلك كثيرة جداً، والله أعلم.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧]،

● **شرح**

النذر: هو إيجاب المكلف على نفسه عبادة.

ووجه الدلالة من الآية على أن النذر عبادة أن الله مدح الموفين بالنذر والله لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم.

ومما يدل أيضاً على أن النذر عبادة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، ووجه ذلك أن الله علَّق النفقة والنذر بعلمه وذلك يدل على أنه محل جزاء وثواب.

ومن السنة قوله ـ ﷺ ـ: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**، أخرجه البخاري برقم (٦٦٩٥) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

ووجه الدلالة من الحديث أن النبي ـ ﷺ ـ أمر بالوفاء بنذر الطاعة والأمر بالوفاء بالنذر على هذه الصفة يدل على أنه عبادة، ولا شك أن صرف هذا النذر لغير الله من الموتى والأصنام والأشجار والأحجار وما أشبه ذلك يعتبر شركاً أكبر مخرجاً من الملة ويتوب الله على من تاب.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ كما في «التوسل والوسيلة» (ص: ٢١٢): وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغير نبي وأن هذا النذر شرك لا يوفى به. اهـ.

وقال ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٥٠٤/١١): وأما النذر للموتى والأنبياء والمشايخ وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية الله تعالى.. إلخ.

وقال الإمام الصنعاني ـ رحمه الله ـ في «سبل السلام» (٣١٢/٤): وأما النذور المعروفة في هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات فلا كلام في تحريمها لأن الناذر يعتقد في صاحب القبر أنه ينفع ويضر ويجلب الخير ويدفع الشر ويعافي الأليم ويشفي السقيم وهذا هو الذي كان يفعله عبَّاد الأوثان بعينه. اهـ.

فائدة مهمة:

يكثر السؤال من طلبة العلم وغيرهم عن وجه الجمع بين كون النذر في أصله مكروه او محرم أو منه مكروه ومنه محرم، وبين كونه طاعة يجب على من نذر أن يطيع الله الوفاء.

وحاصل أجوبة العلماء على ذلك فيما وقفت عليه ما يلي:

١) أن الكراهة أو التحريم إنما تكون في نذر المعاوضة والمجازاة فيأتي بالقربة التي التزمها في نذره على صورة المعاوضة للأمر الذي طلبه فينقص أجره وشأن العبادة أن تكون متمحضة لله تعالى.

٢) أن وجه المنع أن الناذر يصير ملتزماً له فيأتي به تكلفاً بغير نشاط.

٣) أن وجه ذلك أن النهي لكون بعض الجهلة يظن أن النذر يرد القدر ويمنع من حصول المقدور فنهي عنه خوفاً من جاهل يعتقد ذلك.

٤) أن وجه النهي عن النذر والتشديد فيه ليس لكونه مأثماً ولو كان كذلك ما أمر الله أن يوفى به ولا حمد فاعله، وإنما وجهه تعظيم شأن النذر وتغليظ أمره لئلا يتهاون به فيفرط بالوفاء به ويترك القيام به.

٥) حمل بعضهم النهي على من عُلم من حاله عدم القيام بما التزمه.

٦) وقال بعضهم أن سبب النهي أن بعض الجهلة قد يظن أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض أو أن الله يفعل معه ذلك الغرض لأجل ذلك النذر.

وانظر هذه الأقوال ومراجعها في شرحي للقول المفيد.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلَّة، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله،

● شرح

قوله رحمه الله: (الأصل الثاني): أي من الأصول الثلاثة معرفة دين الإسلام بالأدلة لا بالتقليد.

قوله رحمه الله: (الاستسلام لله بالتوحيد): أي بأن يستسلم العبد لربه استسلاماً شرعياً وذلك بتوحيد الله عز وجل، وإفراده بالعبادة، وهذا الإسلام هو الذي يحمد عليه العبد ويثاب عليه، وأما الاستسلام القدري، فلا ثواب فيه لأنه لا حيلة للإنسان فيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقوله رحمه الله: (والانقياد له بالطاعة): وذلك بفعل أوامره واجتناب

نواهيه، لأن الطاعة طاعة في الأمر بفعله وطاعة في النهي بتركه.

وقوله رحمه الله: (والبراءة من الشرك وأهله): أي أنه يتبرأ منه، ويتخلى منه، وهذا يستلزم البراءة من أهله قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وشرح هذه الفقرات الثلاث منقول من شرح الثلاثة الأصول للشيخ ابن عثيمين (ص: ٦٤).

* * * *

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، وكل مرتبة لها أركان، فأركان الإسلام خمسة: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام،

• شرح

قوله رحمه الله: (وهو ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان): يدل على ذلك حديث جبريل المشهور حين سأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفي آخر الحديث قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»**.

والرتبة والمرتبة: المنزلة الرفيعة، انظر النهاية لابن الأثير (٢/١٩٣).

وقوله رحمه الله: (وكل مرتبة لها أركان):

أركان الشيء جوانبه التي يستند إليها ويقوم بها، انظر النهاية لابن الأثير (٢١/٢٦٠).

قوله رحمه الله: (فأركان الإسلام خمسة..) إلخ.

الدليل على ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٨)، ومسلم

في صحيحه برقم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان**».

تنبيه: تقديم الحج على الصوم هو المتفق عليه عند البخاري ومسلم، وأما تقديم الصوم على الحج فهو إحدى الروايتين عند مسلم.

وقد قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - وهو يشرح حديث ابن عمر السابق في كتابه جامع العلوم والحكم (١٢٤/١): والمراد من هذا الحديث أن الإسلام مبني على هذه الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه.. إلى أن قال: ودعائم البنيان هذه الخمس فلا يثبت البنيان بدونها، وبقيةُ خصال الإسلام كتتمة البنيان فإذا فقد منها شيئاً نقص البنيان وهو قائم لا ينقص بنقص ذلك بخلاف نقص هذه الدعائم الخمس فإن الإسلام يزول بفقدها جميعاً بلا إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين الإيمان بالله ورسوله. اهـ.

وقال - رحمه الله - في المصدر السابق (٦٨/١): وهي - يعني أركان الإسلام - منقسمة إلى عمل بدني كالصلاة والصوم، وإلى عمل مالي وهو إيتاء الزكاة، وإلى ما هو مركب منهما كالحج بالنسبة للبعيد عن مكة. اهـ.

* * * *

قال المؤلف رحمه الله تعالى: فدليل الشهادتين قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]. **ومعناها لا معبود بحق إلا الله، «لا إله» نافياً جميع ما يعبد من دون الله، «إلا الله» مثبتاً العبادة لله وحده، لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه، وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾** [الزخرف: ٢٦-٢٨]، **وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ**

﴿الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ [آل عمران: ٦٤]،

• شرح

شرع المؤلف ـ رحمه الله ـ في ذكر أدلة أركان الإسلام، فبدأ بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

والشهادتان رأس الإسلام على الإطلاق، والعبادة مبنية عليهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٩٤/٣): ورأس الإسلام مطلقاً شهادة أن لا إله إلا الله.اهـ.

وقال رحمه الله: (وأصل الإسلام أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن طلب بعبادته الرياء والسمعة فلم يحقق «أشهد أن لا إله إلا الله»، ومن خرج عما أمره به الرسول ـ ﷺ ـ من الشريعة وتعبَّد بالبدعة فلم يحقق «شهادة أن محمداً رسول الله». اهـ.

وقد بدأ المؤلف بذكر أدلَّة شهادة أن لا إله إلا الله وبيان معناها، ومن ذلك قول تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ الآية [آل عمران: ١٨].

وقد فسرها الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤٧١/١ ـ ٤٧٢) بقوله:

شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي المنفرد بالألُوهية لجميع الخلائق، وأن جميع عبيده وخلقه فقراء إليه، وهو الغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ..﴾ الآية [النساء: ١٦٦]، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ...﴾ [آل عمران: ١٨]، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو في جميع الأحوال كذلك، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا

يرام جنابه عظمة وكبرياءً، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.اهـ.

قوله: (ومعناها لا معبود بحق إلا الله...) إلى قوله: (لا شريك له في ملكه).

يقول الشيخ العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ في شرحه لثلاثة الأصول (ص: ١٦٦):

قوله: **(ومعناها)**: أي لا إله إلا الله **(لا معبود بحق إلا الله)**، فشهادة أن لا إله إلا الله أن يعترف الإنسان بلسانه وقلبه بأنه لا معبود حق إلا الله عز وجل لأن «**إله**» بمعنى مألوه، والتأله التعبد، وجملة «**لا إله إلا الله**» مشتملة على نفي وإثبات، أما النفي فهو «**لا إله**» وأما الإثبات فهو «**إلا الله**» و«**الله**» لفظ الجلالة بدل من خبر «**لا**» المحذوفة، والتقدير «لا إله حق إلا الله» وبتقديرنا الخبر بهذه الكلمة «حق» يتبين الجواب عن الإشكال التالي: وهو كيف يقال «**لا إله إلا الله**» مع أن هناك آلهة تعبد من دون الله، وقد سماها الله تعالى آلهة وسمَّاها عابدوها آلهة؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؟ [هود: ١٠١]، وكيف يمكن أن نثبت الألوهية لغير الله عز وجل والرسل يقولون لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، والجواب على هذا الإشكال يتبين بتقدير الخبر في (لا إله إلا الله) فنقول: هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة لكنها باطلة ليست آلهة حقَّة، وليس لها من حق الأُلوهية شيء، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان: ٣٠]، ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٣]، وقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، إذن فالمعبودات

سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدوها ليست حقيقة، أي ألوهية باطلة. اهـ.

قوله رحمه الله: (وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى..﴾ **الآيــة** [الزخرف: ٢٦-٢٧].

● شرح:

أي تفسير كلمة التوحيد «**لا إله إلا الله**» هذه الآية، فإنها تضمنت النفي والإثبات فإن إبراهيم الخليل عليه السلام تبرأ من معبودات قومه واستثنى فاطرهم وفاطرها سبحانه وتعالى.

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (١٦١/٤): يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بُعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ..﴾ [الزخرف: ٢٧-٢٨]، أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي (لا إله إلا الله)، أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إليها. اهـ.

قوله رحمه الله وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ..﴾ **الآية** [آل عمران: ٦٤].

● شرح:

أي: ومما يفسر هذه الكلمة كلمة التوحيد هذه الآية.

وقد قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٤٩٤/١) في الكلام على هذه الآية: هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قال ها هنا، ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا

﴿وَبَيْنَكُمْ﴾ أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أي فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة، فأشهدوهم انتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل شهادة ان محمداً رسول الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]،

● شرح

الشهادة المعتبرة في مثل هذا الموضع، الإخبار بالشيء عن علمٍ به مع اعتقاد صحته وثبوته.

ومن الأدلة على شهادة أن محمداً رسول الله: آيات الله الكونية، وآيات الله الشرعية، والعقل، فقد أيد الله رسوله ـ ﷺ ـ بالآيات العظيمة التي تدل على صدقه، ومن ذلك: انشقاق القمر، وتكثير الطعام، ونصره على أعدائه، وخذلان أعدائه وغير ذلك.

ومن ذلك القرآن العظيم الذي هو أعظم ما أيد الله به رسوله وتحدى الله بلغاء العرب وفصحائهم أن يأتوا ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ أو

﴿بِسُورَةٍ﴾ أو بآية فعجزوا، وهكذا ما فيه من الاحكام والشرائع العادلة الحكيمة والأخبار الصادقة، وهكذا إخباره ـ ﷺ ـ بالأمور الغيبية التي وقعت كما أخبر، ومنها شهادة الله له بذلك وشهادة من عنده علم من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

«وأما العقل: فنبه عليه القرآن كما ذكر المصنف وغيره، ومنه قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ...﴾ الآية [الأنعام: ٩١]، وقول الرجل إني رسول الله، إما أن يكون خير الناس وأصدقهم، وإما أن يكون شرهم وأكذبهم، والتمييز بين ذلك يعرف بأمور كثيرة، نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾.. الآيات [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢]»[1].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، هنا وجه الدلالة، واللام في ﴿لَقَدْ﴾ موطئة للقسم، والتقدير: «والله لقد..» إلخ، والمقسم هو الله سبحانه وتعالى توكيداً لهذا الأمر وتنبيهاً على عظمته، والمقسم عليه، أنه جاءنا رسول من أنفسنا.. إلخ.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم ومن بني جلدتكم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]، وهناك قراءة ﴿مِّنْ أَنفَسِكُمْ﴾ بكسر السين، أي من أنفسكم معدناً ونسباً.

(١) حاشية ابن قاسم على الأصول الثلاثة (ص: ٥٥).

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله، فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع،

• شرح

معنى شهادة أن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ: الإخبار بأنه رسول الله باللسان عن علم به مع اعتقاد صحته وثبوته.

وقد فسَّر المؤلف رحمه الله: هذه الشهادة بلازمها ومقتضاها.

قوله: (طاعته فيما أمر): أي أن نطيعه فيما أمرنا به لأن طاعته من طاعة الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، ولأنه ـ ﷺ ـ لا يأمرنا إلا بما ينفعنا في ديننا ودنيانا، وقد أمرنا الله بطاعته ـ ﷺ ـ في مواضع كثيرة من كتابه.

قوله رحمه الله: (وتصديقه فيما أخبر): لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، ومن لازم إيماننا أنه رسول الله حقّاً وصدقاً أن نصدقه فيما أخبر به من أمور الغيب الماضية والمستقبلة، وأن لا نعارض ذلك بعقولنا، وقد ردَّ أناس اخباره ـ ﷺ ـ كلها أو بعضها بحجة أنها لا توافق عقولهم، فما أفلحوا، ولقد أحسن من قال:

قبحاً لهاتيك العقول فإنها عُقَلٌ على أصحابها ووبالُ

قوله: (واجتناب ما عنه نهى وزجر):

لأنه لا ينهى ـ ﷺ ـ إلا عما يضرنا في ديننا ودنيانا، ولأنه لا ينطق عن الهوى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، وقد قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقال ـ ﷺ ـ: **«ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»** رواه البخاري برقم (٧٢٨٨) ومسلم برقم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: (وأن لا يعبد الله إلا بما شرع).

لأن من عبد الله بغير ما شرع فقد ابتدع، وشرع من الدين ما لم يأذن به الله، وقد قال النبي ـ ﷺ ـ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**، رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٦٩٧) ومسلم في صحيحه برقم (١٧١٨)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وفي رواية لمسلم عنها ـ رضي الله عنها ـ: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**.

وعجباً لمن يشهد أنه رسول الله ويدعي محبته وهو يسلك غير طريقه، ويزيد على سنته ويهتدي بغير هديه ويعبد الله بالاستحسانات وآراء الرجال، والأمر كما قيل:

والدعاوي إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياءُ

■ ■ ■ ■

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]،

● شَرْحٌ

أي والدليل على أن الصلاة والزكاة من العبادة وأنها من دين الإسلام، هذه الآية، وجه ذلك أن الله أمرنا بها، والصلاة والزكاة من أركان الإسلام الخمسة.

وفي هذه الآية أن الكافرين إنما أُمروا أن يفردوا الله بالعبادة دون ما سواه وأن يخلصوا دينهم له مائلين عن الشرك، وإنما ذكرت الصلاة والزكاة مع إنها من جملة العبارة المأمور بها، لعظمتها وأهميتها، وربنا سبحانه كثيراً ما يقرن بينهما في كتابه، وليس هذا موضع الكلام على هاتين العبادتين العظيمتين.

وقد قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٤/٦٩٦): وقوله تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ...﴾ الآية، كقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولهذا قال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] إلى أن قال: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أشرف عبادة البدن ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة. اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]، **ودليل الحج قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]،

• شرح

أي الدليل على أن الصوم والحج عبادتان عظيمتان من أركان الإسلام هاتان الآيتان، وهاتان الآيتان ظاهرتان في وجوب هاتين العبادتين اللتين هما من شعائر الإسلام الظاهرة، والكلام على الصيام والحج ليس هذا موضعه والله المستعان.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: المرتبة الثانية الإيمان، وهو بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان،

• شرح

أي **(المرتبة الثانية)** من مراتب الدين: **(الإيمان)**.

والإيمان عند أهل السنة والجماعة قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وعلى ذلك أجمع سلف الأمة.

ومن الأدلة على إن الإيمان قول باللسان:

ما أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٥)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٩)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»** واللفظ لمسلم.

ومن الأدلة على أن الإيمان اعتقاد بالقلب، قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، وقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾ [المائدة: ٤١] ومن السنة ما رواه الترمذي في جامعه برقم (٢٠٣٢) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: صعد رسول الله ـ ﷺ ـ المنبر فنادى بصوتٍ رفيع فقال: **«يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»**.

ومن الأدلة على أن الإيمان عمل: ما في صحيح الإمام البخاري (٧٧/١فتح) باب من قال: إن الإيمان هو العمل، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]: عن قول لا إله إلا الله، وقال ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١]، وساق إسناده إلى أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: **«إيمان بالله ورسوله»**، قيل: ثم ماذا؟ قال: **«الجهاد في سبيل الله»**، قيل: ثم ماذا؟ قال: **«حج مبرور»**.

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون الإيمان قول وعمل ونيَّة لا يجزئ واحد منها إلا بالآخر. اهـ، مجموع الفتاوى (٧/٢٠٩).

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في جامع العلوم والحكم (١/١٠٤) محقق: . . . وأنكر السلف على من أخرج الأعمال من الإيمان إنكاراً شديداً، وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثاً: سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختياني وإبراهيم النخعي والزهري ويحيى بن أبي كثير وغيرهم، وقال الثوري: هو رأي محدث أدركنا الناس على غيره، وقال الأوزاعي: كان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل. اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٤/٦٩٦) في الكلام على قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقد استدل كثير من الأئمة كالثوري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان. اهـ.

ونبرأ إلى الله في هذا الباب من مذهب الخوارج والمعتزلة، ومن مذهب المرجئة.

فلا نقول إن مرتكب الكبيرة وإن لم يكن مستحلاً لها كافر كما قالت الخوارج أو في منزلة بين المنزلتين كما قالت المعتزلة.

ولا نقول إنه إن مات على ذلك كان مخلداً في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة بل نقول إنه تحت المشيئة إن شاء الله عذبه ثم أدخله الجنة، وإن شاء أدخله الجنة ابتداءً برحمته.

ولا نقول كما قالت المرجئة لا يضر مع الإيمان ذنب وإن أفجر الناس وأعبد الناس في الإيمان سواء.

وإن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان، بل فعل المحرمات وترك الواجبات يضعف الإيمان وقد يجر صاحبه إلى الكفر عياذاً بالله.

وأما الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه فهي كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع والحس، ومن أدلة القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ومن السنة: ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم (٩)، ومسلم في صحيحه برقم (٣٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان»** واللفظ لمسلم.

وما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**.

وأما الإجماع على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص:

فقد قال ابن عبدالبر في التمهيد (٢٣٨/٩): أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان يزيد وينقص. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. اهـ.

وانظر مدارج السالكين لابن القيم (٤٢١/١)، وتفسير ابن كثير (٣٧٩/٢) في الكلام على الآية (٢) من سورة الأنفال.

وأما الحسَّ: فإن المؤمن كلما زادت طاعته القولية والعملية كلما أحسَّ بزيادة الإيمان، وكلما قلت أحس بنقصان إيمانه والله المستعان.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وأركانه ستة: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، **ودليل القدر قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]،

• شرح

قد سبق الكلام على الركن.

والإيمان بالله يتضمن: ١) الإيمان بوجوده. ٢) الإيمان بربوبيته. ٣) الإيمان بألوهيته. ٤) الإيمان بأسمائه وصفاته.

والإيمان النافع ما أثمر محبة الله وتعظيمه وخوفه ورجائه.

قوله رحمه الله: (وملائكته).

الملائكة جمع ملك وأصله مألك من الألوكية بمعنى الرسالة، انظر شرح الكرماني لصحيح البخاري (١/١٩٤).

وأمَّا سبب تقديم ذكر الملائكة على الكتب والرسل، فقد قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في فتح الباري (١/١٤٤): وقدم الملائكة على الكتب والرسل نظراً للترتيب الواقع، لأنه سبحانه وتعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول... وقال ـ رحمه الله ـ: والمراد من التقديم ـ تقديم الملائكة في الذكر ـ أن الخير والرحمة من الله ومن أعظم رحمته أن أنزل كتبه إلى عباده والمتلقي لذلك منهم الأنبياء والواسطة بين الله وبينهم الملائكة. اهـ.

والإيمان بالملائكة قسمان:

١) إيمان مجمل بجميع ملائكة الله، مَنْ عَلِمْنا منهم ومن لم نعلم،

وأنهم مخلوقات من نور خلقهم الله لعبادته والقيام بأمره، ليس لهم من خصائص الألوهية والربوبية شيء.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ..﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

٢) إيمان مفصل بمن ذكر منهم بإسمه كجبريل وميكائيل وإسرافيل وهم أشرف ملائكة الله، وبصفة من ذكر منهم بصفة كحملة العرش وخزنة النار، وبعدد من ذكر منهم بعدد كحملة العرش وخزنة النار أيضاً، وبعمل من ذكر منهم بعمل كالموكلين بحلق الذكر وكتابة أعمال بني آدم والموكلين بفتنة القبر وعذابه. وانظر «تعظيم قدر الصلاة» لمحمد بن نصر المروزي (٣٩٢/١).

قوله رحمه الله: (وكتبه).

الإيمان بالكتب: هو الاعتقاد الجازم أنها كلام الله المنزل على رسله، وأن منها ما خطه الله بيده.

والإيمان بالكتب على قسمين:

١) إيمان مجمل بجميع كتب الله المنزلة على رسله ما علمنا منها وما لم نعلم، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ

أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥].

٢) إيمان مفصل بجميع ما سمَّى الله منها.

وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى صلى الله عليهما وسلم، والزبور المنزل على داود - ﷺ - وصحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام، والقرآن المنزل على محمد - ﷺ -.

قوله رحمه الله: (ورسله).

الرسول: في اللغة: من بُعث برسالة.

واصطلاحاً: هم رجال مكلفون من بني آدم أوحى الله إليهم بشرع جديد أمرهم بتبليغه.

والإيمان بالرسل على قسمين:

١) إيمان مجمل بمن علمنا منهم ومن لم نعلم قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ...﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

٢) إيمان مفصل بمن ذكر منهم باسمه في كتاب الله او صحيح سنة رسول الله - ﷺ -.

قوله رحمه الله: (واليوم الآخر):

الإيمان باليوم الآخر: هو الاعتقاد الجازم بأنه حق لا ريب فيه، قال

تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ۝٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٥﴾ [آل عمران: ٢٥].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»** رواه البخاري برقم (٦٠١٨)، ومسلم برقم (٤٧).

ويتضمن الإيمان باليوم الاخر أموراً:

١) الإيمان ببعث الأبدان والأرواح بعد الموت. ٢) الإيمان بالحوض. ٣) الإيمان بالحساب والميزان. ٤) الإيمان بالصراط. ٥) الإيمان بالشفاعة. ٦) الإيمان بالجنة والنار وأنهما لا تفنيان ولا تبيدان أبداً، والإيمان بجميع ما يكون في ذلك اليوم وبكل ما وصف الله به ذلك اليوم.

ومن ثمرات الإيمان باليوم الاخر:

أولاً: الحرص على طاعة الله رغبة في ثواب ذلك اليوم والبعد عن معصيته خوفاً من عقاب ذلك اليوم.

ثانياً: تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها. اهـ، مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ (٣/٣٦٠).

قوله رحمه الله: (وتؤمن بالقدر خيره وشره).

● **شرح**: هكذا في الحديث بإعادة لفظ «تؤمن بالقدر» دون الملائكة والكتب والرسل.

فلو قال قائل فما الحكمة من إعادة لفظ «تؤمن» عند ذكر القدر؟

الجواب: أن الحكمة من إعادة «تؤمن» عند ذكر القدر كأنها إشارة إلى

ما يقع فيه من الاختلاف فحصل الاهتمام بشأنه بإعادة «تؤمن...» الخ. انظر فتح الباري لابن حجر (١/١٨).

والقدر: اسم لما صدر مقدراً من فعل القادر، يقال قدَّرت الشيء وقدرته بالتخفيف والتثقيل بمعنى واحد، قاله الخطابي كما في شرح الإمام النووي لصحيح مسلم(١/١٢٩)

ومراتب الإيمان بالقدر أربع، من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقدر:

١) الإيمان بعلم الله السابق بكل شيء. ٢) الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ. ٣) الإيمان بمشيئة الله النافذة وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ٤) الإيمان بأن الله خالق كل شيء من الذوات والصفات الخير والشر، وانظر المراتب مفصلة في شفاء العليل لابن القيم (ص: ٢٩).

ومن أدلة المرتبة الأولى قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

وفي صحيح الإمام مسلم برقم (٢٦٤٧) من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم جالساً وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال: **«ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار»**، قالوا: يا رسول الله فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: **«لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له»** ثم قرأ: «﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾» إلى قوله: «﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]».

قلت: وفي هذا الحديث دلالة ظاهرة على أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك العمل بل فيه الأمر بالعمل.

ومن أدلة المرتبة الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر: ٥٢ ـ ٥٣]، وفي صحيح مسلم برقم (٤٩٤٨) من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: (كنَّا في جنازةٍ في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ـ ﷺ ـ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: **«ما منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة»**، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: **«من كان من أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل اهل الشقاوة»** ثم قرأ: «﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥ ـ ٦]».

ومن أدلة المرتبتين السابقتين معاً:

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠].

ومن أدلة المرتبة الثالثة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ۝٢٤﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

ومن السنة ما أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**.

ومن أدلة المرتبة الرابعة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفلق: ١ ـ ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

ومن السنة ما أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٦٦٢) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«أَوَلا تدرين أن الله تعالى خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً؟!»**.

وقد انقسم الناس في القدر إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الجبرية الذين قالوا إن العبد مُجبر على عمله وليس له فيه إرادة ولا قدرة.

والقسم الثاني: القدرية الذين قالوا إن العبد مستقلٌّ بعمله في الإرادة والقدرة وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر.

والرد على الطائفة الأولى (الجبريَّة) بالشرع والواقع:

أما الشرع: فإن الله تعالى أثبت للعبد إرادة ومشيئة، وأضاف العمل إليه، قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

وأما الواقع: فإن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته كالكلام، والشرب والبيع والشراء، وبين ما يقع عليه بغير إرادته كالارتعاش من الحمَّى والسقوط من السطح، فهو في الأول فاعل مختار بإرادته من غير جبر، وفي الثاني غير مختار ولا مريد لما وقع عليه.

والرد على الطائفة الثانية (القدرية) بالشرع والعقل:

أما الشرع: فإن الله تعالى خالق كل شيء، وكل شيء كائن بمشيئته، وقد بين الله تعالى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشيئته فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣].

وأما العقل: فإن الكون كله مملوك لله تعالى، والإنسان من هذا الكون فهو مملوك لله تعالى، ولا يمكن للمملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته، انظر في هذين القسمين السابقين شرح الثلاثة الأصول للشيخ العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ (ص: ١١٦-١١٧).

قلت: فالقسم الأول غلاة في إثبات القدر أَعْملوا بعض النصوص وأهملوا البعض الآخر، والقسم الثاني غلاة في نفي القدر أَعْملوا بعض النصوص وأهملوا البعض الآخر.

القسم الثالث:

أهل التوسط والهداية والاستقامة أهل السنة والجماعة الذين هداهم الله لأحسن الأقوال والأعمال، فنظروا في هذا الباب إلى جميع النصوص مستضيئين بفهم السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فأثبتوا علم الله السابق وكتابته ومشيئته النافذة وخلقه لكل شيء وأثبتوا للعبد قدرةً ومشيئةً واختياراً لا تتنافى مع مشيئة الله وقدرته بل كل ذلك داخل تحت مشيئة الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، فسَلِموا بحمد الله من مخالفة المنقول والمعقول ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وأهل هذا القسم هم أهل الحق والصواب الذي لا يجوز الذهاب إلى خلافه.

القسم الرابع:

من يقول: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به. فهؤلاء شرُّ أتباع الشيطان وليس هو مذهباً لطائفة

معروفة ولكن هو حال عامة المحلولين من الأمر والنهي، إنْ فَعَلَ طاعة أخذ يضيفها إلى نفسه ويعجب حتى يحبط عمله، وإن فعل معصيةً أخذ يعتذر بالقدر ويحتج بالقضاء. وتلك حجة داحضة وعذر غير مقبول وتراه إذا أصابته مصيبة بفعل العباد أو غيرهم لا يستسلم للقدر، وتراه إذا ظلم نفسه أو غيره احتج بالقدر، ويقول: العبد مسكين لا قادر ولا معذور، ويقول:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماءِ

وإن ظلمه غيره ظلماً دون ذلك أو توهم أنه ظلمه أحد، سعى في الانتقام من ذلك بأضعاف ذلك ولا يعذر غيره بمثل ما عذر به نفسه من القدر.

وقد استفدت هذا التقسيم الرباعي من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٨/٤٤٤ ـ ٤٤٦) والقسم الرابع من كلام شيخ الإسلام كله.

وبعد هذا فالقدر هو سرُّ الله في خلقه لا يجوز الخوض فيه إلا بعلم وبصيرة وحذر واتباع لطريقة السلف، وليس لأحد أن يحتج بالقدر فيفعل المحرمات ويترك الواجبات، بل يفعل ما أُمر به ويترك ما نُهي عنه ويعلم أن الله حكم عدل ليس بظلاّم للعبيد ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قوله رحمه الله تعالى: والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، **ودليل القدر قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]،

• شرح

أي الدليل على هذه الأركان الستة من القرآن هاتان الآيتان، وأما دلالة السنة فسيذكرها المؤلف رحمه الله تعالى بعد مرتبة الإحسان.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، فقد قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٢٨٦/٤): «... ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة». اهـ.

وأما سبب نزول هذه الآية: فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه برقم (٦٦٩٤) من حديث أبي هريرة أرضي الله عنه ـ قال جاء مشركوا قريش يخاصمون رسول الله ـ ﷺ ـ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٨-٤٩].

قال المؤلف رحمه الله تعالى: المرتبة الثالثة: الإحسان، ركن واحد وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، **وقوله:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، **وقوله:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]،

• **شرح**

المرتبة الثالثة من مراتب الدين الإحسان.

والإحسان لغة: ضد الإساءة، انظر اللسان (١١٧/١٣).

وفي الشرع: قسّمه العلماء إلى قسمين:

١) إحسان في عبادة الله. ٢) إحسان إلى خلق الله.

والإحسان محبوب إلى الله تعالى ومأمور به قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ورحمة الله قريب من المحسنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والمحسنون المتقون هم أهل معية الله الخاصة، التي من مقتضاها النصر والتأييد والحفظ والهداية قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

والإحسان في عبادة الله: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فإن لم تعبده على استحضار الدرجة الأولى درجة المراقبة فاعلم أنه يراك سميع عليم بصير، مطلع على جميع خفياتك، فهاتان درجتان إحداهما أكمل من الأخرى، فإن لم تحصل على عبادة الله كأنك تشاهده فاعبده على مرأى من الله وأنه سميع عليم بجميع ما تفعله(١).

«فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك»(٢)، وقد قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ وهو يتكلم على قوله ـ ﷺ ـ: **«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**: وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شقَّ عليه أن يعبد الله كأنه يراه فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه فليستحي من نظره إليه كما قال بعض العارفين: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك وقال بعضهم: خفِ الله على قدر قدرته عليك واستحيي منه على قدر قربه منك.اهـ، جامع العلوم والحكم.

وأما الإحسان إلى عباد الله فيكون: ١) ببذل الندى. ٢) بكف الأذى. ٣) بطلاقة الوجه.

والمقصود ببذل الندى: أن تبذل لهم الخير الديني والدنيوي.

أما الديني فيكون بتعليمهم ونصحهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

---

(١) انظر حاشية ابن قاسم على الاصول الثلاثة.

(٢) شرح الامام النووي لصحيح مسلم (١٣١/١).

المنكر، ونحو ذلك، وأما الدنيوي: فيكون بإعانتهم على البر والتقوى ونصرتهم على الحق، وبالشفاعة الشرعية لهم ونحو ذلك، وأما كف الأذى فيشمل كف أذية اليد واللسان وما كان في معنى ذلك، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»** أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١١) ومسلم في صحيحه برقم (٤١) من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ.

وأما طلاقة الوجه ففي صحيح الإمام مسلم برقم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»**، وفي رواية: **«طليق»**.

وأحق الناس بما سبق: الوالدان، ثم الأقرب فالأقرب والله الموفق.

وأمَّا الآيات الثلاث التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ:

فوجه الدلالة من الآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، أن الله رغب بالإحسان فأخبر أنه مع المحسنين المعية الخاصة التي من مقتضاها النصر والحفظ والتأييد وغير ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] فوجه الدلالة أن الله مطلع على عبده في حال عبادته وجميع حالاته.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، فوجه الدلالة منها أن الله أخبر أنه يعلم حال نبيه ـ ﷺ ـ وأحوال أمته وجميع الخلق في كل وقت لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فمن كان كذلك وجب مراقبته وإخلاص العمل له سبحانه والله الموفق.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والدليل من السنة: حديث جبريل المشهور عن عمر رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسؤول عنها باعلم من السائل»، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال: فمضى فلبثنا ملياً، فقال: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله اعلم، قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»،

• شرح

أي الدليل من السنة على مراتب الدين الثلاث حديث جبريل، وهذا الحديث أخرجه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٩) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأخرجه مسلم برقم (٨) من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: الأصل الثالث معرفة نبيكم محمد ﷺ،

• شرح

قال الشيخ عبدالرحمن بن قاسم النجدي: أي من أصول الدين الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها، فمعرفة نبينا محمد - ﷺ - هي أحد الأصول الثلاثة، فكما أن الأصل الأول وهو معرفة الله عظيم وواجب معرفته، فكذلك هذا الأصل الثالث، وهو معرفة نبينا محمد - ﷺ - أصل عظيم يجب معرفته فإنه - ﷺ - هو الواسطة بيننا وبين الله تعالى، ولا وصول لنا ولا إطلاع لنا ولا طريق لنا ولا نعرف ما ينجينا من غضب الله وعقابه، ويقربنا من الله وثوابه إلا بما جاء به نبينا محمد - ﷺ -، وإذا كان كذلك عرفنا وجه كون معرفته أحد الأصول الثلاثة التي يجب معرفتها فإنا لا نعرف الأصل الأول الذي هو معرفة الرب جل جلاله[1]، ولا الأصل الثاني الذي هو دين الإسلام إلا بالواسطة بيننا وبين الله، فتحتمت معرفته - ﷺ -، وصارت أصلاً ثالثاً، إذ لا يمكن معرفة المرسل إلا بمعرفة رسوله فصار من الضروريات معرفة الرسول - ﷺ -، وبذلك ظهر أن معرفته - ﷺ - أحد الأصول الثلاثة، ومعرفته تنتظم أشياء عديدة: منها معرفة اسمه ونسبه وعمره وبقائه في الدنيا ووفاته، ومعرفة ما نبئ به وما أرسل به وبلده ومهاجره، ومنها - وهو أعظمها - معرفة ما بعث به، وغير ذلك مما ذكر المصنف وغيره. اهـ، حاشية الأصول الثلاثة (ص: ٧٢ - ٧٣).

قلت: ومن هذه المعارف ما هو واجب ومنها ما هو مستحب، والمقصود من هذه المعرفة، تحقيق الإيمان به ومحبته ومتابعته وعدم الإحداث والابتداع في دينه، وبذلك تكون (شهادة أن محمداً رسول الله - ﷺ -) عن علم ومعرفة.

---

(١) أي المعرفة التامة النافعة.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وهو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام،

• شرح

في هذا بيان نسبه ـ ﷺ ـ، وأنه أشرف أهل الأرض نسباً، فقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفي صحيح البخاري برقم (٧) في حديث هرقل الطويل وسؤاله لأبي سفيان عن صفات رسول الله ـ ﷺ ـ قال أبو سفيان: ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ **قلت**: هو فينا ذو نسب، قال: كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها[١].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد (٧٠/١): فصل في نسبه ـ ﷺ ـ:

وهو خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك ولهذا شهد له به عدوُّه إذ ذاك أبو سفيان بين يدي ملك الروم، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[٢]، إلى ها هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسَّابين ولا خلاف فيه ألبتَّة، وما فوق عدنان مختلف فيه ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند

---

(١) ومما يدل على ذلك ايضاً قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

(٢) انظر تراجم مختصرة لهؤلاء الآباء في فتح الباري (٢٠٠/٧-٢٠١) كتاب مناقب الأنصار باب مبعث النبي ﷺ.

علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم.اهـ. وانظر البداية والنهاية لابن كثير (٢٣٥/٢ ـ ٢٣٧) وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٣٥/٢): فهو سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة.اهـ.

وقال الماوردي في أعلام النبوة (٢٤٣):

لما كان أنبياء الله صفوة عباده وخير خلقه لما كلَّفهم من القيام بحقه استخلصهم من أكرم العناصر وأمدَّهم بأوكد الأواصر حفظاً لنسبهم من قدح ولمنصبهم من جرح لتكون النفوس لهم أوطأ والقلوب لهم أصغى فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع ولأوامرهم أطوع.اهـ، ففائدة معرفة نسبه ـ ﷺ ـ أن الله اصطفاه خياراً من خيار فهو من سلالة طاهرة من ذرية إبراهيم عليه السلام.

■ ■ ■ ■

وقوله رحمه الله: (هو محمد):

قلت: هذا أشهر أسماه ـ ﷺ ـ وسيأتي إن شاء الله ذكر بعض أسمائه ـ ﷺ ـ مشروحةً:

(ابن عبد المطلب): اسم عبد المطلب: شيبة يقال لشيبة كانت في رأسه ويقال له شيبة الحمد لجوده، انظر البداية والنهاية لابن كثير (٢٣٥/٢)، وانظر فتح الباري (١٩٩/٧) كتاب مناقب الانصار باب مبعث النبي ـ ﷺ ـ.

(ابن هاشم): اسم هاشم: عمرو وإنما قيل له هاشم، لأنه أول من هشم الثريد بمكة وأطعمه، انظر تاريخ الطبري (٢٥١/٢)، وفتح الباري لابن حجر (٢٠٠/٧).

قوله رحمه الله: (وهاشم من قريش): قيل إن قريشاً هو النضر بن كنانة، وقيل: هو فهر بن مالك.

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وهذان القولان قد حكاهما غير

واحد من أئمة النسب، كالشيخ أبي عمر بن عبد البر والزبير بن بكار ومصعب وغير واحد، قال أبو عبيد وابن عبدالبر: والذي عليه الأكثرون أنه النضر بن كنانه. اهـ، البداية والنهاية (١٨٦/٢) والذي رجحه ابن كثير في المصدر السابق أنه النضر بن كنانه.

وأما اشتقاق قريشٍ ففي ذلك أقوال منها:

١) اشتقاق قريش من التقريش وهو التجمع بعد التفرق.

٢) من التقريش وهو التكسب والتجارة حكاه ابن هشام، انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٨٧/٢).

قوله رحمه الله: (وقريش من العرب والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام).

• شرح:

روى الإمام مسلم وغيره برقم (٥٨٩٧) من حديث واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**إن الله اصطفى كنانه من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانه، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**».

فائدة:

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: قال أبو عمر ابن عبد البر: يقال بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ـ ﷺ ـ، وبنو هاشم فخذه وبنو عبد مناف بطنه، وقريش عمارته، وبنو كنانه قبيلته، ومضر شعبه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. اهـ، البداية والنهاية (١٨٨/٢).

وأما أسمائه ﷺ فمنها: محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب.

فقد أخرج البخاري في صحيحه برقم (٤٨٩٦)، ومسلم في صحيحه

برقم (٦٠٥٨) من حديث جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**إن لي أسماء، أنا محمدٌ وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب**»، هذا لفظ البخاري، وفي مسلم: «**والعاقب الذي ليس بعده نبي**»، وفي لفظ للبخاري: «**لي خمسة أسماء...**» فذكرها.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد (٨٦/١):

أسماؤه ـ ﷺ ـ نوعان: أحدهما: خاص لا يشاركه فيه غيره من الرسل كمحمد وأحمد والعاقب والحاشر والمقفَّى ونبي الملحمة(١).

والثاني: ما يشاركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه كماله فهو مختص بكماله دون أصله، كرسول الله ونبيه وعبده، والشاهد والمبشِّر والنذير، ونبي الرحمة ونبي التوبة(٢). اهـ.

وقال (ص: ٨٤ ـ ٨٥): وكلها ـ أسماء رسول الله ـ نعوت ليست أعلاماً محضة لمجرد التعريف بل أسماء مشتقة من صفاته قائمة به توجب له المدح والكمال. اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح (٦٤٢/٦) في قوله ﷺ: «**لي خمسة أسماء**»: والذي يظهر أنه أراد ان لي خمسة أسماء أختص بها لم يسمَّ بها أحد قبلي، أو معظَّمة أو مشهورة في الأمم الماضية، لا أنه أراد الحصر فيها. قال القاضي عياض: حمى الله هذه الأسماء أن يسمَّى بها أحد قبله، وإنما تسمَّى بعض العرب محمداً قرب ميلاده لما سمعوا من الكهان والأحبار أن نبيّاً سيبعث في ذلك الزمان يسمَّى محمداً فرجوا أن يكونوا هم فسمَّوا أبناءهم بذلك. اهـ.

شرح معاني أسمائه ﷺ:

محمد: اسم مفعول من حَمِدَ فهو محمَّد إذا كان كثير الخصال التي يحمد عليها.

---

(١)(٢) لا أعلم دليلاً على أن نبي الملحمة ونبي التوبة من أسمائه ﷺ.

أحمد: فيه قولان: **الأول**: أحمد الناس لربه، وعلى هذا القول فهو أحق الناس وأولاهم بأن يحمد، فيكون كمحمد في المعنى، إلا أن الفرق بينهما أن محمداً هو كثير الخصال التي يحمد عليها وأحمد هو الذي يحمد أفضل مما يحمد غيره، فمحمد في الكثرة والكمِّية، وأحمد في الصفة والكيفية، فيستحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره وأفضل مما يستحق غيره، **والثاني**: أنه بمعنى محمود، وهذان الاسمان محمد وأحمد إنما اشتقا من أخلاقه وخصائصه المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى محمداً وأحمد وهو الذي يحمده أهل السماء وأهل الأرض وأهل الدنيا وأهل الآخرة لكثرة خصائله المحمودة التي تفوق عدَّ العادِّين وإحصاء المحصين، انظر زاد المعاد لابن القيم ـ رحمه الله ـ (١/٨٧-٩٠).

وأما الماحي: فقد قال ابن القيم في زاد المعاد (١/٩١ ـ ٩٢): وأما الماحي والحاشر والمقفِّي والعاقب فقد فسرت في حديث جبير بن مطعم، فالماحي: هو الذي محا الله به الكفر، ولم يمح الكفر بأحد من الخلق ما مُحي بالنبي ـ ﷺ ـ، فإنه بُعث وأهل الأرض كلهم كفار إلا بقايا من أهل الكتاب وهم ما بين عُبَّاد أوثان ويهود مغضوب عليهم، ونصارى ضالين، وصابئة دَهرية، لا يعرفون ربّاً ولا معاداً، وبين عبَّاد الكواكب، وعبَّاد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء، ولا يقرون بها فمحا الله سبحانه برسوله ذلك حتى ظهر دين الله على كل دين وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار.اهـ.

وتفسير الحاشر: الحشر هو الضم والجمع، فهو الذي يحشر الناس على قدمه فكأنه بعث ليحشر الناس. أهـ. زاد المعاد (١/٩٢).

وتفسير العاقب: الذي جاء عَقِب الأنبياء فليس بعده نبي، فإن العاقب هو الآخر، فهو بمنزلة الخاتم، ولهذا سُمِّي العاقب على الإطلاق، أي عَقب الأنبياء جاء بعقبهم. اهـ، زاد المعاد (١/٩٢).

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وله من العمر ثلاث وستون سنة منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيّاً رسولاً،

• شرح

اتفقت العلماء على أن رسول الله ـ ﷺ ـ أقام بمكة قبل النبوة أربعين سنة، وأقام بالمدينة عشر سنين، واختلفوا في إقامته في مكة بعد النبوة وقبل الهجرة والصحيح أنه أقام فيها ثلاث عشرة سنة، انظر شرح النووي لصحيح مسلم (٨/١٠٠) كتاب الفضائل، باب كم اقام النبي ـ ﷺ ـ بمكة والمدينة، وفي صحيح البخاري برقم (٣٨٥١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: انزل على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو ابن اربعين فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة، فمكث فيها عشر سنين، ثم توفي ـ ﷺ ـ، وفي صحيح مسلم برقم (٦٠٥٠) من حديث ابن عباس قال: أقام رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه وبالمدينة عشراً ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وفي صحيح مسلم برقم (٦٠٤٤) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قبض رسول الله ـ ﷺ ـ وهو ابن ثلاثٍ وستين وأبو بكر وهو ابن ثلاثٍ وستين وعمر وهو ابن ثلاثٍ وستين.

ما الحكمة من بعثه ﷺ في سن الأربعين؟

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد (٨٢/١): بعثه الله على رأس أربعين وهي سنُّ الكمال، قيل: ولها تبعث الرسل.اهـ.

وقوله رحمه الله: (وثلاث وعشرون نبياً ورسولاً):

لأنه مكث في مكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة وفي المدينة عشر سنين فالمجموع ثلاث وعشرون سنة.

وقوله رحمه الله: (نبياً رسولاً):

يدل ظاهره على أن المؤلف يرى التفريق بين النبي والرسول،

والخلاف في ذلك مشهور والمسألة محتاجة إلى تحرير، نسأل الله التيسير.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: نُبِّئ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأُرسل بالمدثِّر.

• شَرحٌ

أول ما أُنزل على رسول الله ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد (٨٣/١): فأول ما أُنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، هذا قول عائشة والجمهور، وقال جابر: أول ما أُنزل عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١]، والصحيح قول عائشة لوجوه... فذكرها. اهـ.

قوله رحمه الله: (وأرسل بالمدثر)، لأنه أمر فيها بالإنذار والبلاغ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وبلده مكَّة وهاجر إلى المدينة،

• شَرحٌ

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: لا خلاف أنَّه ولد ـ ﷺ ـ بجوف مكة. اهـ، زاد المعاد (٧٤/١)، وقال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم (١٠٠/٨) كتاب الفضائل باب كم أقام النبي ـ ﷺ ـ بمكة والمدينة: واتفقوا أنه ولد يوم الاثنين شهر ربيع الأول. اهـ.

قوله رحمه الله: (وهاجر إلى المدينة)، هذا أمر أشهر من أن يذكر وقد بوب الإمام البخاري في صحيحه (٢٦٦/٧ فتح) باب هجرة النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه إلى المدينة، ثم أسند أحاديث ومنها حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أُمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاثٍ وستين.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد،

• شرح

قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي ـ رحمه الله ـ: ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ جملة مما يُعرَفُ به النبي ـ ﷺ ـ، وأعظمها وأعلاها معرفة ما بعث به النبي ـ ﷺ ـ وأنه بعث بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد، وقدم المصنف النذارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد، لأن هذا مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله، ولأن الآية تقتضي ذلك، فبدأ بجانب الشرك لكون العبادة لا تصح مع وجود المنافي، فلو وجدت والمنافي لها موجود لم تصح، ثم ثنَّى بالتوحيد لأنه أوجب الواجبات ولا يرفع عمل إلا به. اهـ، حاشية الأصول الثلاثة (٧٦).

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]، ومعنى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ أي عظمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ أي أعمالك عن الشرك، ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ الرجز الأصنام وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها،

• شرح

كلام المؤلف مختصر مفيد ليس عليه مزيد وانظر إن شئت إغاثة اللهفان لابن القيم (١/٥٢ ـ ٥٥)، وتفسير ابن كثير (٤/٥٦٧-٥٦٨)، وتفسير ابن جرير (١٤/١٤٤ ـ ١٤٦).

فائدة: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد (١/٨٤): فصل في ترتيب الدعوة ولها مراتب:

المرتبة الأولى: النبوة، الثانية: إنذار عشيرته الأقربين، الثالثة: إنذار قومه، الرابعة: إنذار قومٍ ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة، الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر. اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد،

• شرح

أي أنه ـ ﷺ ـ أخذ على الدعوة إلى التوحيد وهو إفراد الله بالعبادة في هذا الموضع، ويحذر من الشرك وهو صرف شيء من عبادة الله لغيره، عشر سنين قبل أن تفرض الشرائع، وإن كان قد ورد ذكر في بعض الشرائع على سبيل الإجمال.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وبعد العشر عُرج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس وصلى في مكة ثلاث سنين،

• شرح

(المعراج مفعال من العروج: أي الآلة التي يعرج فيها أي يُصعد، وهو بمنزلة السلَّم لكن لا يُعْلَم كيف هو، وحُكْمُه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته). اهـ، شرح الطحاوية لابن أبي العز ـ رحمه الله ـ.

وقد أُسري بالنبي ـ ﷺ ـ إلى بيت المقدس بجسده وروحه يقظة لا مناماً ثم عرج به كذلك إلى السماء مرَّة واحدة، قال ابن أبي العز ـ رحمه الله ـ: ومما يدل على أن الإسراء بجسده يقظة قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]،

والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح، فيكون الإسراء بهذا المجموع ولا يمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهو كفر.

فإن قيل: فما الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس أولاً؟

فالجواب والله اعلم: إن ذلك كان إظهاراً لصدق دعوى الرسول ـ ﷺ ـ المعراجَ حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم وأخبرهم عن عيرهم التي مرَّ عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته[1]، وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه لمن تدبره وبالله التوفيق.اهـ، شرح الطحاوية (ص: ٢٢٦).

قلت: وفيه أيضاً دليل على رفعة قدر نبينا ـ ﷺ ـ وعلى شرف الصلاة لأنها فرضت في السماء من الله إلى رسوله ـ ﷺ ـ بلا واسطة، وفيه غير ذلك من الفوائد العظيمة ولولا خشية الإطالة لأوردت حديث الإسراء بطوله والله المستعان.

فائدة: قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦): ..فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨].اهـ.

فائدة أخرى: أُختلف في تحديد زمن الإسراء والمعراج على أقوال كثيرة، فقيل: قبل الهجرة بعشر سنين، وقيل: قبل الهجرة بسنة، وأقوال أخرى بين ذلك، انظر البداية والنهاية لابن كثير ـ رحمه الله ـ (٢/١٠٧) وفتح الباري لابن حجر (٧/٢٤٣).

---

(١) قلت: وقيل غير ذلك من الحكم انظر فتح الباري (٧/٢٣٦-٢٣٧) باب حديث الإسراء.

فائدة ثالثة: قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/١٠٧): ومن الناس من يزعم أن الإسراء كان أول ليلة جمعة من شهر رجب وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيها الصلاة المشهورة ولا أصل لذلك والله اعلم. اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وبعدها أُمر بالهجرة إلى المدينة،

• شَرْحٌ

أخرج الإمام البخاري في صحيحه برقم (٣٩٠٢) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بُعث رسول الله ـ ﷺ ـ لأربعين سنةً، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أُمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد (١/٩٧):

فأقام ـ ﷺ ـ بمكة ما أقام، يدعو القبائل إلى الله تعالى، ويعرض نفسه عليهم في كل موسم أن يؤووه حتى يُبلِّغ رسالة ربه ولهم الجنة، فلم تستجب له قبيلة وادَّخر الله ذلك كرامةً للأنصار، فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإنجاز وعده ونصر نبيه، وإعلاء كلمته والانتقام من أعدائه ساقه إلى الأنصار لما أراد بهم من الكرامة. اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في البداية والنهاية (٢/١٧٥) باب هجرة رسول الله ـ ﷺ ـ بنفسه الكريمة من مكة إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وذلك أول التاريخ الإسلامي كما اتفقت عليه الصحابة في الدولة العمرية كما بيناه في سيرة عمر ـ رضي الله عنه ـ وعنهم أجمعين. اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى قيام الساعة، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]، **وقوله تعالى:** ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦]، **قال البغوي رحمه الله تعالى: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان. والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[(١)].**

• شرح

تعريف الهجرة المذكور مشهور في كتب الفقه وغيرها، والمهاجرة في الأصل مصارمة الغير ومتاركته، انظر مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٥١٤).

والهجرة هجرتان: ١) هجرة البدن. ٢) هجرة القلب.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الرسالة التبوكية (ص: ٣٥ ـ ٣٦):

الهجرة هجرتان: الهجرة الأولى هجرة الجسم من بلد إلى بلد وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها، والهجرة الثانية: الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله وهذه هي المقصودة هنا وهذه الهجرة الحقيقية وهي الأصل وهجرة الجسد تابعة لها. اهـ.

---

(١) إسناده حسن اخرجه أبو داود في سننه (٢٤٧٩)، والنسائي في الكبرى (٨٧١١)، والدارمي في سننه (٢٥١٣)، وأحمد (٩٩/٤) وغيرهم، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٦٩).

وإنما شرعت الهجرة فراراً بالدين وإحرازاً له، فإنه مقدم على الأهل والمال والوطن والنفس، وقد ساق المؤلف ـ رحمه الله ـ ما يدل على أن الهجرة باقية إلى أن تقوم الساعة من الكتاب والسنة.

أما الآية الأولى فسبب نزولها ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم (٤٥٩٦) حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا حيوة وغيره حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال: قُطع على أهل المدينة بعثٌ، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشدَّ النهي ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثِّرون سواد المشركين على رسول الله ـ ﷺ ـ يأتي السهم يُرمى به فيصيب به أحدهم فيقتله أو يُضرب فيقتل فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ. .﴾ الآيات [النساء: ٩٧-٩٩]، رواه الليث عن أبي الأسود.

وأما تفسير الآية فقد قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٧٢٠/١-٧٢١): . . فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بترك الهجرة ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً. .﴾ الآية، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ. . .﴾ إلى آخر الآية، هذه عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي يعني طريقاً، وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي بتجاوز من الله عنهم بترك الهجرة، «عسى» من الله موجبة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. اهـ.

وأمَّا الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦]، فقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها

(٣/٥٥٦): هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ولهذا قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت: ٥٦]. اهـ.

وأمَّا دلالة الحديث فإنها ظاهرة جلية ولله الحمد، ولكن بقي أن يقال كيف الجواب على حديث: **«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيَّة وإذا استنفرتم فانفروا»**، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٠٧٧) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -، ومسلم برقم (١٨٦٤) من حديث عائشة - رضي الله عنها -؟

فالجواب:

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرح هذا الحديث في شرحه لصحيح مسلم (٧/١١): قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، وتأولوا هذا الحديث تأولين: أحدهما لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام فلا تتصور منها الهجرة، الثاني - وهو الأصح: أن معناه أن الهجرة الفاضلة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً، انقطعت بفتح مكة، ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة لأن الإسلام قوي وعزَّ بعد فتح مكة عزّاً ظاهراً بخلاف ما قبله. اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في الفتح (٦/٢٢٠): قوله: **«لا هجرة بعد الفتح»** أي فتح مكة أو المراد ما هو أعم من ذلك إشارة إلى أن حكم غير مكة في ذلك حكمها فلا تجب الهجرة من بلد قد فتحه المسلمون، أما قبل فتح البلد فمن به من المسلمين أحد ثلاثة:

الأول: قادر على الهجرة منها لا يمكنه إظهار دينه ولا أداء واجباته فالهجرة منه واجبة.

الثاني: قادر لكنه يمكنه إظهار دينه وأداء واجباته فمستحبة لتكثير المسلمين بها ومعونتهم وجهاد الكفار والأمن من غدرهم والراحة من رؤية المنكر بينهم.

الثالث: عاجز يعذر من أسر أو مرض أو غيره، فتجوز له الإقامة، فإن حمل على نفسه وتكلف الخروج منها أُجر.اهـ.

فائدة: ذكر الإمام مسلم في صحيحه برقم (١٨٦٢) قصة دخول سلمة بن الأكوع على الحجاج فقال: يا ابن الأكوع ارتددت على عقبيك، تعرَّبت؟ قال: لا ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ أذن لي بالبدو.

وبوب له الإمام النووي بقوله: باب تحريم رجوع المهاجر إلى استيطان وطنه، فذكره ثم قال: قال القاضي عياض: أجمعت الأمة على تحريم ترك المهاجر هجرته ورجوعه إلى وطنه، وعلى أن ارتداد المهاجر أعرابياً من الكبائر.اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: فلمَّا استقرَّ في المدينة أُمر ببقية شرائع الإسلام مثل الزكاة والصوم والحج والأذان والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شرائع الإسلام، أخذ على هذا عشر سنين،

• شرح

إنما أُمر بهذه الشرائع في المدينة لأنها صارت دار إسلام وأصبحوا آمنين على أنفسهم متمكنين من القيام بما أمرهم به ربهم سبحانه وتعالى بخلاف ما كان عليه الحال بمكة، أما الصلاة فكما هو معلوم انها فرضت في مكة، وكذلك الزكاة الصحيح أنها فرضت في مكة لكن دون تقدير وفرضت مقاديرها في المدينة، والدليل على أن جنس الزكاة فرض بمكة دون تقديرٍ قولُه تعالى في آخر سورة المزّمل ـ وهذه السورة مكية ـ:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقوله رحمه الله: (والجهاد)،

أي أن الجهاد بالنفس والمال إنما فرض في المدينة وهذا لا إشكال فيه، وأما الجهاد بالحجة والبيان وتبليغ القرآن فقد فرض بمكة. قال تعالى في سورة الفرقان آية (٥٢): ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد (٥/٣): وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن. اهـ.

وقوله: (أخذ على هذا عشر سنين).

قد سبق ذكر حديث ابن عباس وفيه بيان ذلك.

* * * *

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وبعدها توفي صلوات الله وسلامه عليه ودينه باق، وهذا دينه لا خيرَ إلاّ دلَّ الأمة عليه ولا شر إلاّ حذرنا منه، والخير الذي دلَّ عليه التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذَّر منه: الشرك وجميع ما يكره الله ويأباه،

• شرح

قوله: (وبعدها توفي صلوات الله وسلامه عليه).

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ..﴾

الآية [آل عمران: ١٤٤]، وغير ذلك، وفي صحيح البخاري برقم (٣٦٦٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ـ ﷺ ـ: (أن رسول الله ـ ﷺ ـ، مات وأبو بكر بالسُّنح ـ قال إسماعيل يعني بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ـ ﷺ ـ. قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنَّه الله فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ـ ﷺ ـ فقبَّله فقال: بأبي أنت وأمي، طبت حيَّاً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف، على رِسْلِكَ، فلمَّا تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً ـ ﷺ ـ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قال: فنشج الناس يبكون.. الحديث.
وقد توفي رسول الله ـ ﷺ ـ في المدينة وله من العمر ثلاث وستون سنة كما سبق.

قوله رحمه الله: (ودينه باقٍ وهذا دينه).

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وقوله رحمه الله: (لا خير إلاّ دلَّ الأمة عليه..) إلخ.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وعن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال: صلَّى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فماذا تعهد علينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**

المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة»[1].

وقوله رحمه الله: (لا خير).... (لا شر)، خير وشر نكرتان في سياق النفي تفيدان العموم لكل خير ديني ودنيوي، وكلِّ شرٍّ ديني ودنيوي، وأعلى الخير التوحيد وأعلى الشر الشرك عياذاً بالله.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: بعثه إلى الناس كافة وافترض الله طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]،

• **شرح**

هذا من خصائص رسول الله ـ ﷺ ـ حيث بعثه الله إلى العرب والعجم الإنس والجن، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وفي البخاري برقم (٣٣٥)، ومسلم برقم (٥٢١) وغيرهم، من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«أُعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحدٌ قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل منِ أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلَّت لي المغانم ولم تحلَّ لأحد قبلي، وأُعطِيتُ الشفاعةَ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصَّة وبعثت إلى الناس عامَّة»**.

---

(١) حديث حسن اخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وصححه، وابن ماجه (٤٣ ـ ٤٤)، والدارمي (٩٦)، وأحمد (١٢٦/٤-١٢٧) وغيرهم.

وفي صحيح مسلم برقم (٢٤٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: **«والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»**.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فقد قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره (٢/٢٥٥ - ٢٥٦): يقول تعالى لنبيه ورسوله - ﷺ -: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي جميعكم. وهذا من شرفه وعظمته - ﷺ - أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول إلى الناس كلهم.اهـ.

وإذا كان رسولاً إلى الناس جميعاً وجب عليهم طاعته ومتابعته وقد سبق ذكر بعض الأدلة على ذلك.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وأكمل الله به الدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]،

• شرح

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره (٢/١٣): ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، هذا

أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل لهم تعالى دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلاّ ما أحلّه ولا حرام إلاّ ما حرَّمه، ولا دين إلاّ ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي فلمّا أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه. اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣٠-٣١]،

• شرح

قد سبق الكلام على هذا ولله الحمد.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والناس إذا ماتوا يبعثون والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، **وقوله تعالى:** ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧-١٨]،

• شرح

البعث لغة: التحريك والإثارة.

واصطلاحاً: الاعتقاد الجازم بإعادة الله الأرواح إلى الاجساد بعد موتها وإخراجها من القبور للحساب والجزاء.

و الإيمان بالبعث مما دلّ عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة، وهو ركن من أركان الإيمان.

(وهذا هو النتيجة من إرسال الرسل أن يعمل الإنسان لهذا اليوم يوم البعث والنشور، اليوم الذي ذكر الله سبحانه وتعالى من أحواله وأهواله ما يجعل القلب ينيب إلى الله عز وجل ويخشى هذا اليوم. قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمل: ١٧-١٨])(١).

براهين البعث أربعة:

١) خلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

٢) خلق الإنسان أولاً، قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

٣) إحياء الأرض بعد موتها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

٤) إحياء بعض الموتى في دار الدنيا، لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٧]، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣]، وقال

---

(١) شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن عثيمين حفظه الله (ص١٤٥).

تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.. الآية [البقرة: ٢٥٩]، انظر أضواء البيان للشنقيطي (٣/٢٢٣ ـ ٢٢٤) بأوسع من هذا وقد دلَّت الآية الأولى والثانية التي استدل بهما المؤلف ـ رحمه الله ـ: على أن الله خلقنا من الأرض من ترابها ويعيدنا فيها بعد الموت وذلك بالدفن، ويخرجنا منها يوم القيامة بالبعث.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]،

• شرح

الحساب والجزاء هو المقصود من البعث فيحاسب ويجزي العباد على أعمالهم حسنها وسيئها صغيرها وكبيرها، والإيمان بذلك من الإيمان باليوم الآخر قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وأمَّا الآية التي استدل بها المؤلف رحمه الله وهي قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فقد قال الحافظ ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (١٣/٦٤): يقول: ليجزي الذين عصوه من خلقه فأساؤوا بمعصيتهم إياه، فيثيبهم النار، ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، يقول: وليجزي الذين أطاعوه فأحسنوا بطاعتهم إياه في الدنيا بالحسنى وهي الجنَّة فيثيبهم بها، وقيل عَنِيَ بذلك أهل الشرك والإيمان.اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ومن كذب بالبعث كفر والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: ٧]،

• شرحٌ

وجه كفر من أنكر البعث انه مكذِّب لله ولرسوله ـ ﷺ ـ فالآيات والأحاديث في إثبات ذلك كثيرة مشهورة، وقد اتفقت كل الرسالات السماوية على إثبات البعث والإيمان به واتفق على ذلك المسلمون أجمعون فمن أنكر البعث فقد أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة يكفر بإنكاره له.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٣٠﴾ [الأنعام: ٢٩-٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٣﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وإن الإنسان ليعجب عندما يسمع من ينكر البعث ممن اتبع الفلاسفة المشَّائين مع أن هذا أمرٌ متفق عليه في جميع الشرائع وأنه حق بل أقرَّ به إبليس لعنه الله حيث قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨]، وقد سبق ذكر براهين البعث الدالَّة على أن الإيمان به ضرورة شرعية وعقلية، وقد أورد ابن أبي العز ـ رحمه الله ـ في شرحه للعقيدة الطحاوية (ص: ٤٠٦-٤٠٩) أعظم شبهات الملاحدة الذين ينكرون البعث وبين الردَّ عليها فأفاد وأجاد رحمه الله.

وأمَّا الآية التي استدل بها المؤلف ـ رحمه الله ـ فليس فيها تكفير من أنكر البعث بل حاصل ما فيها أن الله اخبر أن الكفار زعموا أن لن يبعثوا والله أعلم.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين والدليل قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]،

• شرح

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (٧٨٣/١): وقوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، أي يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب[1]، وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥]، أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].. وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«لا أحدَ أَغْيَرُ من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»**، وفي لفظ آخر: **«من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه»**. اهـ.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وأولهم نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين، والدليل على أن أولهم نوح عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]،

---

(١) قلت: ومن أعظم الطاعات التوحيد واتباع السنة ومن أعظم مخالفة أمره وتكذيب رسله الشرك والابتداع في الدين.

• شَرْحٌ

ومن الأدلة على أن نوحاً أول رسول إلى أهل الأرض ما في البخاري برقم (٧٤١٠)، ومسلم برقم (١٩٣) وغيرهما من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «**فيأتون آدم ﷺ فيقولون أنت أبو الخلق، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربَّه منها، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول أرسله الله..**» الحديث، ذلك أن ما بين آدم إلى نوح كانوا أهل توحيد، فلما وقع الشرك في قوم نوح بعث الله نوحاً إليهم يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم من الشرك.

وفيما سبق ردٌّ على من يقول إن إدريس هو أول رسول إلى أهل الأرض، بل قد حُكِي الإجماع على أن نوحاً هو أول رسول إلى أهل الأرض.

❑❑❑❑

قوله رحمه الله: (وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين).

• شَرْحٌ:

دلَّ على أن محمداً - ﷺ - خاتَمُ النبيين الكتابُ والسنة والإجماع، ومخالف ذلك أو مدَّعي النبوة كافر كفراً ينقل من الملة.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقد قرأ عاصم «خاتَم» بفتح التاء وقرأ باقي العشرة «خاتِم» بكسر التاء.

وروى البخاري في صحيحه برقم (٣٥٣٠)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من**

زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟» قال: «**فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**».

وفي صحيح البخاري برقم (**٤٤١٦**)، ومسلم برقم (**٢٤٠٤**) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: «**أتخلفني على الصبيان والنساء؟**» قال: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي من بعدي**»، وفي لفظ لمسلم: «**إلا أنه لا نبي بعدي**».

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وكل أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمدٍ يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]،

• شرح

بعث الله في كل أمةٍ رسولاً يدعوهم إلى إفراد الله بالعبادة وينهاهم عن الشرك بالله ويقيم عليهم الحجة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا معنى لا إله إلا الله، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره (**٥٦٩/٢**) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾.. الآية [النحل: ٣٦]: ويبعث في كل أمة ـ أي من كل قرن وطائفة من الناس ـ رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فلم يزل يرسل إلى الناس بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح وكان أول

رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمدٍ - ﷺ - الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب.اهـ.

📖📖📖📖

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وافترض على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله،

• شرح

الطاغوت في اللغة: مشتق من طغى أي تجاوز القدر، انظر لسان العرب (١٥/٧-٨).

وفي الاصطلاح: فسِّر بعدة تفاسير لا تنافِ بينها في حقيقة الأمر، فمنهم من فسره بالمثال فقال: الشيطان، وقال غيره: السحر، وقال غيره: الأصنام، وقال غيره: الكاهن، وقال غيره: كل رأس في الضلال.. وكل هذا من باب التفسير بالمثال ومنهم من فسره بتفسير شامل، وأحسنُ ما وقفت عليه في ذلك هو تفسير ابن القيم حيث قال في إعلام الموقعين (ص: ٥٠): والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله، ومن الأدلة على أن الله افترض على العباد الكفر بالطاغوت والإيمان به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾.. الآية [النساء: ٦٠]، وما أرسلت الرسل وانزلت الكتب إلا لأجل تحقيق الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

📖📖📖📖

قال المؤلف رحمه الله تعالى: قال ابن القيم رحمه الله تعالى: الطاغوت ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع،

• شرح

سبق قريباً أن ابن القيم قال ذلك في إعلام الموقعين (ص: ٥٠).

قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي ـ رحمه الله ـ في شرح كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: يعني كل شيء يتعدى به العبد حدَّه أي قدره الذي ينبغي له في الشرع يصير به طاغوتاً، سواء تعدى حدَّه من معبود مع الله بأي نوع من أنواع العبادة أو متبوع في معاصي الله أو مطاع من دون الله في التحليل والتحريم بأن كان يحرم ما أحلَّ الله ويحل ما حرم الله، ثم قال ابن القيم فإذا تأملت طواغيت العالم فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة[١] .اهـ.

وقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (من معبود)، يشمل كل ما عبد من دون الله أو مع الله وهو راضٍ بذلك.

وقوله رحمه الله: (أو متبوع أو مطاع)، يشمل العلماء والأُمراء الذين يرضون أن يجاوز بهم الناس الحدَّ الشرعي، والعلماء والأُمراء هم أولوا الأمر المأمور بطاعتهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، لكن إنما يطاعون في طاعة الله كما دلَّت عليه الآية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٢٥٠/٣): وقد قال الأئمة: إن أُولي الأمر صنفان العلماء والأُمراء، وهذا يدخل في مشايخ الدين وملوك المسلمين: كلهم منهم يطاع فيما إليه من الأمر، كما يطاع هؤلاء بما يؤمرون به من العبادات ويرجع إليهم في معاني القرآن والحديث والإخبار عن الله، وكما يطاع هؤلاء في الجهاد وإقامة الحد وغير ذلك مما يباشرونه من الأفعال التي أمر الله بها.اهـ، وانظر إعلام الموقعين لابن القيم ـ رحمه الله ـ (١٠/١).

(١) قلت: هذا معنى كلام ابن القيم وليس لفظه انظر إعلام الموقعين (ص: ٥٠).

فالعلماء والأُمراء الذين يدعون الناس إلى عبادة غير الله من القبور ونحوها أو إلى تحليل الحرام أو تحريم الحلال يعتبرون طواغيت تحرم طاعتهم ولا كرامة.

■ ■ ■ ■

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادَّعى شيئاً من علم الغيب ومن حكم بغير ما أنزل الله،

● شرح

قوله رحمه الله: (ورؤوسهم خمسة): قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في حاشيته على الأصول الثلاثة (ص: ٩٥): أي أكبر الطواغيت بالاستقرار والتأمل خمسة. اهـ.

قوله رحمه الله: (إبليس لعنه الله): هو رأسهم ومعلمهم ومغويهم، قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١١٧-١٢١]، وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

قوله رحمه الله: (ومن عُبِدَ وهو راضٍ):

أي من عبد مع الله أو من دون الله بأي نوع من أنواع العبادة وهو راضٍ بذلك، سواء وقعت تلك العبادة في حياته أو بعد مماته فهو من رؤوس الطواغيت والعياذ بالله.

قوله رحمه الله: (ومن دعا الناس إلى عبادته):

أي من دعا الناس إلى أن يعبدوه مع الله او من دون الله في حياته أو بعد مماته بأي نوع من أنواع العبادة، من ذبح أو نذر أو تعظيم كتعظيم الله أو أشد أو السجود له أو دعائه بعد موته والاستغاثة به ونحو ذلك، فإن من فعل ذلك فإنه من رؤوس الطواغيت إجابه الناس إلى مطلبه أو لم يجيبوه والله أعلم.

قوله: (ومن ادَّعى شيئاً من علم الغيب).

● شرحٌ

الغيب: هو كل ما غاب عنك، انظر لسان العرب (٦٥٤/١).

وهو نوعان: واقع ومستقبل، فغيب الواقع نسبي يكون لشخص معلوماً ولآخر مجهولاً، وغيب المستقبل حقيقي لا يكون معلوماً لأحد إلا الله وحده أو من اطلعه الله عليه من الرسل فمن ادعى علمه فهو كافر لأنه مكذِّب لله ـ عز وجل ـ ولرسوله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، وإذا كان الله يعلن للملإ أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، فإن من ادعى الغيب فقد كذب الله ـ عز وجل ـ ورسوله في هذا الخبر[١].

فالرسل لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله مع علوِّ قدرهم فهذا

(١) شرح ثلاثة الأصول للشيخ العلامة ابن عثيمين حفظه الله.

نبي الله نوح أول رسول إلى أهل الأرض يقول لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ...﴾ الآية [هود: ٣١]، ولم يكن يدري أن ابنه الذي غرق ليس من أهله الموعود بنجاتهم حتى أخبره الله بقوله: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.. الآية [هود: ٤٦]، وهذا خليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ذبح العجل للملائكة ضيافةً وإكراماً ولا علم له بأنهم ملائكة حتى أخبروه بذلك وقالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وكذلك نبي الله لوط عليه السلام جاءته الملائكة ولم يعلم أنهم ملائكة ولذلك ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، حتى قالوا له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام أبيضت عيناه من الحزن على ولده يوسف وهو في مصر لا يدري بخبره حتى أظهره الله، وهذا نبي الله سليمان سخر الله له الريح والشياطين وغير ذلك وما كان يدري عن أهل سبأ وما هم عليه من الشرك حتى أخبره الهدهد، وهذا خليل الله ورسوله محمد ـ ﷺ ـ يأمره الله بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ومن المعلوم أن الأنبياء والملائكة هم اعلم خلق الله ومع ذلك فلا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله، قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.. الآية [الجن: ٢٦، ٢٧].

وهؤلاء الجن قامت البراهين القطعية انهم لا يعلمون الغيب كغيرهم من مخلوقات الله قال تعالى في نبيه سليمان: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

والآيات الدالة على أن الغيب لا يعلمه إلا الله كثيرةٌ جداً من القرآن

والسنة وعلى ذلك الإجماع أيضاً، وبهذا تعرف كفر من ادعى علم الغيب مع الله أو من دون الله من المنجمين والسحرة والرمَّالين والكهنة وغيرهم وبه يتبين لك عظيم دجل كهنة بيت الفقيه الذين يصدرون النشرات السنوية التي يدعون فيها علم ما سيكون وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقوله رحمه الله: (ومن حكم بغير ما أنزل الله).

من حكم بغير ما أنزل الله فهو من رؤوس الطواغيت سواءً حكم بالقوانين الوضعية أو بالأسلاف والأعراف المخالفة للشرع أو ما أشبه ذلك إذا كان يعتقد أن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله أو أفضل أو أنه يجوز أن تحكم بغير الشرع وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

واعلم أن الواجب على المكلفين إذا حكموا أن يحكموا بما أنزل الله في القضايا العامة والخاصة الصغيرة والكبيرة ولا يجوز لهم أن يتحاكموا إلى غير الشرع في ذلك كلِّه.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.. الآية [المائدة: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

والذي عليه أئمة السلف والخلف أنه لا يكفر من حكم بغير ما أنزل الله إلا أن يعتقد أن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله أو أفضل من حكم الله او استحلَّ الحكم بغير ما أنزل الله، أو حكم بغير الشرع ونسب ذلك الحكم إلى الله وهو يعلم أنه ليس من عند الله أما من حكم بغير ما أنزل الله وهو يعتقد أن حكم الله أفضل وأنه لا يجوز الحكم بغيره بل يجب الحكم بما أنزل الله ولكن لغلبة شهوة أو هوى حكم بغير ما انزل الله فإنه يكون كافراً كفراً أصغر لا ينقل عن الملَّة ويكون بذلك ظالماً فاسقاً مرتكباً لكبيرة من كبائر الذنوب ويتوب الله على من تاب.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في منهاج السنة (٥/٣٠) في أثناء كلامه على وجوب الحكم بما أنزل الله: ـ وإيراده لأدلَّة ذلك ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فمن استحلَّ أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتِّباع لما أنزل الله فهو كافر. اهـ.

وقال ـ رحمه الله ـ كما في مجموع الفتاوى (٣/٢٦٧): . . والإنسان متى حلَّل الحرام المجمع عليه أو حرَّم الحلال المجمع عليه أو بدَّل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتدّاً باتفاق الفقهاء وفي مثل هذا نزل قوله تعالى على أحد القولين: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، أي المستحل للحكم بغير ما أنزل الله. اهـ، انظر تفسير ابن جرير الطبري (٤/٢٥٢ ـ ٢٥٧)، وتفسير ابن الجوزي ـ زاد المسير ـ (٢/٢٨٢)، وتفسير الشنقيطي (٢/١٠٣ ـ ١٠٤)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٣٠٤)، والروح لابن القيم (ص: ٣٩٩-٤٠٠)، ومدارج

السالكين لابن القيم (١/٣٣٥ ـ ٣٣٧)، والصلاة وحكم تاركها لابن القيم (٧٣ ـ ٧٥) وغير ذلك.

وقد سُئلت اللجنة الدائمة برئاسة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ برقم (٥٧٤١).

ـ من لم يحكم بما أنزل الله هل هو مسلم أم كافر كفراً أكبر وتقبل منه أعمال؟ فأجابت اللجنة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه ـ وبعد:

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، لكن إن استحل ذلك واعتقده جائزاً فهو كفر أكبر وظلم أكبر وفسق أكبر يخرج من الملة، أما إن فعل ذلك من أجل الرشوة أو مقصد آخر وهو يعتقد تحريم ذلك فإنه آثم يعتبر كافراً كفراً أصغر وفاسقاً فسقاً أصغر لا يخرجه من الملّة كما أوضح ذلك أهل العلم في تفسير الآيات المذكورة.اهـ.

وقال سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ:

من حكم بغير ما أنزل الله فلا يخرج عن أربعة أُمور:

من قال: أنا أحكم بهذا لأنه أفضل من الشريعة الإسلامية فهو كافر كفراً أكبر.

ومن قال: أنا أحكم بهذا، لأنه مثل الشريعة الإسلامية، فالحكم بهذا جائز وبالشريعة جائز، فهو كافر كفراً أكبر.

ومن قال: أنا أحكم بهذا، والحكم بالشريعة الإسلامية أفضل، لكن الحكم بغير ما أنزل الله جائز، فهو كافر كفراً أكبر.

ومن قال: أنا أحكم بهذا وهو يعتقد أن الحكم بغير ما أنزل الله لا يجوز، ويقول: الحكم بالشريعة الإسلامية أفضل، ولا يجوز الحكم بغيرها

ولكنه متساهل، أو يفعل هذا لأمر صادرٍ من حكَّامه فهو كافر كفراً أصغر لا يخرج من الملَّة ويعتبر من أكبر الكبائر. اهـ، قضية التكفير بين أهل السنة وفرق الضلال (٧٢ ـ ٧٣)، فعليك بهذا ودع عنك ما يقال والله المستعان.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، **وهذا معنى لا إله إلا الله،**

• شرح

أي الدليل على أن الله افترض على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هذه الآية، وقد سبق الكلام على هذا ولله الحمد، وقوله وهذا معنى لا إله إلا الله، لأن معنى لا إله إلا الله الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ففيها نفي وإثبات والله الموفق.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»[1]، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

• شرح

قوله ـ ﷺ ـ: «رأس الأمر الإسلام»، قال صاحب مرقاة المفاتيح شرح

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والحاكم في مستدركه (٢/٤١٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/١٩٤/٢٠٣٠٣)، ومن طريقه الامام أحمد في مسنده (٥/٢٣١) و(٥/٢٣٧) وغيرهم وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع برقم (٥١٣٦).

مشكاة المصابيح (١/١٩٤): اي أمر الدين الإسلام، يعني الشهادتين إذ المقصود تشبيه الإسلام برأس الأمر، ليشعر بأنه من سائر الأعمال بمنزلة الرأس من الجسد في احتياجه إليه وعدم بقائه دونه، قال ابن العربي المالكي ـ رحمه الله ـ في عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي (١٠/٩٥) رأس الأمر الإسلام: ضرب له مثلاً الرأس لأنه لا وجود للمرء إلا بالرأس حسّاً كذلك لا وجود له حكماً إلا به.

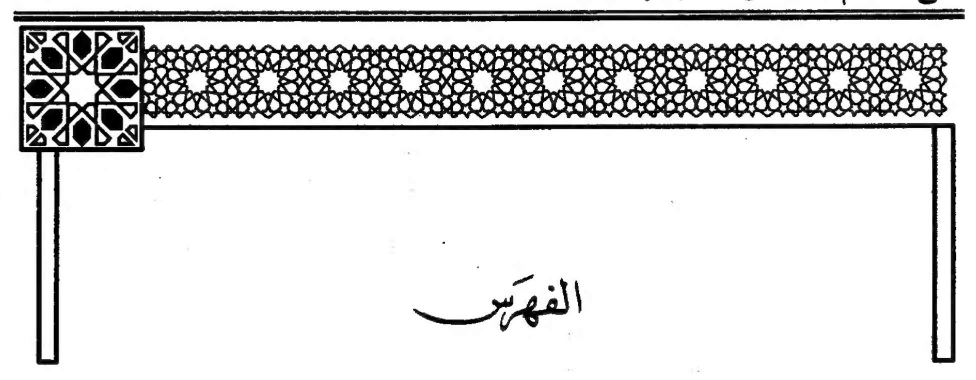
قوله: (وذروة سنامه الجهاد): قال في المرقاة: وفيه إشعار إلى صعوبة الجهاد وعلو أمره وتفوقه على سائر الأعمال، والجهاد من الجَهد بالفتح وهو المشقة، أو بالضم وهو الطاقة لأنه يبذل الطاقة في قتال العدو عند فعل العدو مثل ذلك، أو بضمِّ جهده إلى جهد أخيه في نصرة دين الله، كالمساعدة، وهي ضمُّ ساعده إلى ساعد أخيه لتحصيل القوة، وله أنواع: من جهاد الأعداء ليكون الدين كله لله وجهاد النفس بحملها على إتباع الأحكام، وترك المحظور. اهـ.

وقال صاحب العارضة: «**وذروة سنامه الجهاد**»: ضرب له مثلاً الذروة لعلوِّه من الأعمال بتكفيره كل خطيئة إلا الدين.اهـ.

وبهذا ينتهي شرح هذه الرسالة المباركة واللَّهَ أسألُ باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى واذا دعي به أجاب بأنه الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن يجعل عملي هذا وسائر أعمالي خالصة لوجهه، نافعة لي ولعباده وأن يضع لهذا الشرح القبول إنه خير مسؤول. وصلى الله وبارك على رسوله وخليله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

فرغ من هذا الشرح عصر يوم الأربعاء المبارك
في اليوم الرابع والعشرين من ربيع الآخر
لسنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف هجرية





الفهرس